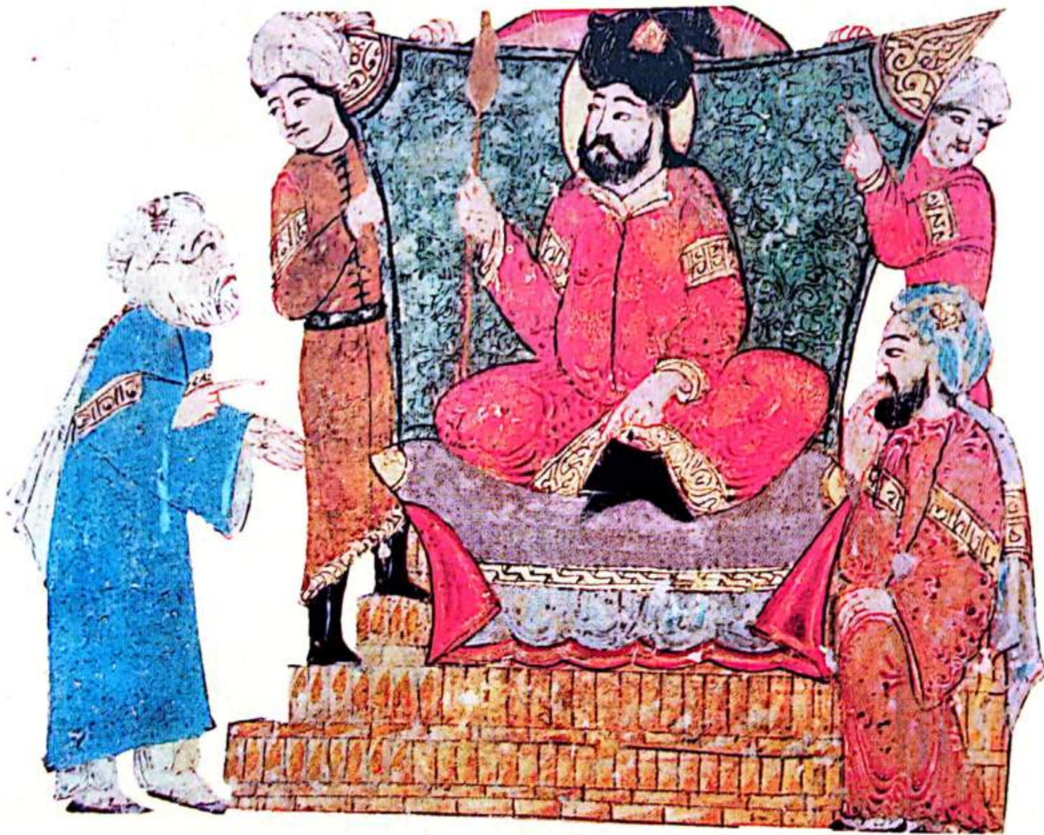
# أحمد باشا الجزّار

طارق ضومط



مكتبة حبيب

# محتوى الكتاب

ثالثاً- الجزّار في بلاد الشام وجبل لبنان.

# تمهيد

بدأ لبنان – منذ سقوط الأمير فخر الدين المعني الكبير سنة ١٦٩٧ م- يفقد بريقه السياسي، وعمد العثمانيون الى شرذمته داخلياً. ولم تتنبّه الأسر الاقطاعية اللبنانية الى ذلك الهدف، بل دأبت تتصارع في ما بينها على الزعامة والإمارة. وإذا كان الأمير حيدر الشهابي قد استطاع استئصال شأفة الحزبية القديمة، مُجْتَثّاً جذور اليمنية، فإن حزبية جديدة برزت على الساح: الجنبلاطية واليزبكية. وانغمس الأمراء الشهابيون في الحزبية الجديدة، ممّا أفقد لبنان حصانته الداخلية، ودأب العثمانيون يذكون الصراع الداخلي فيه، وعملوا جادين على مراقبة أوضاعه الداخلية عن كثب، فأنشأوا لهذه الغاية ولاية صيدا عام ١٧٦٠. وتسارعت في الوقت عينه التطورات الداخلية في الولايات العربية العثمانية، والتنازع في ما بين الدول الأوروبية الطامعة بأملاك "الرجل المريض" (الدولة العثمانية).

وفي غمرة تلك الأحداث، ابتلى لبنان بطاغية قلّ نظيره. هو أحمد باشا الجزّار، ظاهرة حديدية فريدة ، شره للمال والدماء، تجاوز أصله وعرقه وتشرّب الأسلوب العثماني في الحكم ، متبنّياً معادلة "فرِّق تَسُد"، مستغلاً الفوضى السائدة في الدولة العثمانية، فبرز على مسرح الأحداث كأحد أقوى رجالاتها، لا بل مرجعاً محورياً في المناطق التي خضعت لسلطانه؛ فقد فرّق الأمراء والمشايخ، وقسّم الامارة اللبنانية مقاطعات، مؤجّجاً نار الحروب الأهلية، ملهباً سعيرها، حتى ضمن العائلة الواحدة.

ساس الامارة بخبث ودهاء ومكر، مُجيّراً كل الأحداث لصالحه الشخصي، في حين استمرّ زعماؤها هائمين في غيبوبة الغباء التائقة أبداً للفوز بالسلطة، وأيّ سلطة كانت ؟!! مستسلمين لسبات عميق محموم بالحقد والعدواة والكراهية، تلاعب بهم الجزّار كما شاء، مذكياً الحقد والضغائن والأنانية في نفوسهم.

وعلى هذا، فإن الجزّار – تحقيقاً لشهواته وطغيانه – لم يرحم بريئاً، أو يمدّ يد العون لمحتاج، ولم يرفّ له جفن لمآسي الناس وَضَنكِ العيش الذي ساد في ما بينهم. وكان كلّما ازدادت ضحاياه البشرية يطيب نفساً، وقد مثّل عن جدارة دور الحاكم الأجنبي، ونموذج الحكم العثماني الذي يشهد التاريخ على ظلمه وجرائمه.

طارق خليل ضومط

# الفصل الأول

# أحمد باشا الجزار



أحمد باشا الجزّار

# ١ أحمد باشا الجزّار (١٧٣٥؟ - ١٨٠٤)

## ١- أصله ونشأته:

احمد باشا الجزّار بشناقي[١] الأصل، ترعرع في إحدى قراها حوالي سنة ١٧٥٠م. تخلّى عنه أهله فبات معرّضاً للتشرّد والضياع، واصبح من شذّاذ الآفاق بعد أن سلك طرق الفساد واستسلم لنزواته. ولسوء طالعه، وقع في هوى امرأة أخيه الفاتنة الجمال، وكانت صبيّة في عمر الورود، حاول اغواءها ليفوز بقلبها، وعندما لم يفلح عمد الى اغتصابها، تتبّعه أهلها وترصّدوه وصمّموا على قتله. وبعد ملاحقته طويلاً، دفعه حسن طالعه الى طريق استانبول، التي شكّلت له في ما بعد مهد عظمته.

وكان لهذا الفتى - البالغ من العمر آنذاك حوالي خمسَ عشرة سنة - ثقة عمياء بالصدفة، بدليل أن القدر قد سطّر مسار حياته. كان مغامراً تراوده أحلام كما كلّ الشباب في مقتبل عمرهم، تدغدغهم الشهرة وجنون العظمة، ويمنّون النفس بالآمال والأحلام لبلوغ أعلى المراكز والمناصب. ولكن أيُعقل وصول فتى مغامر كهذا لا يتمتّع بالثقافة ولا تلقّن علماً[٢] الى مراكز مرموقة؟ وكانت قدراته الخياليّة متوثّبة بقدر ما كانت قدرته العقلية هزيلة، ومن هذه الناحية لم يكن مختلفاً عن العديد من أبناء بلده الذين تعطّل لديهم الإتّزان بفعل التشرّد الذي انتابهم بعد أن تخلّى عنهم أهلهم، حتى

---

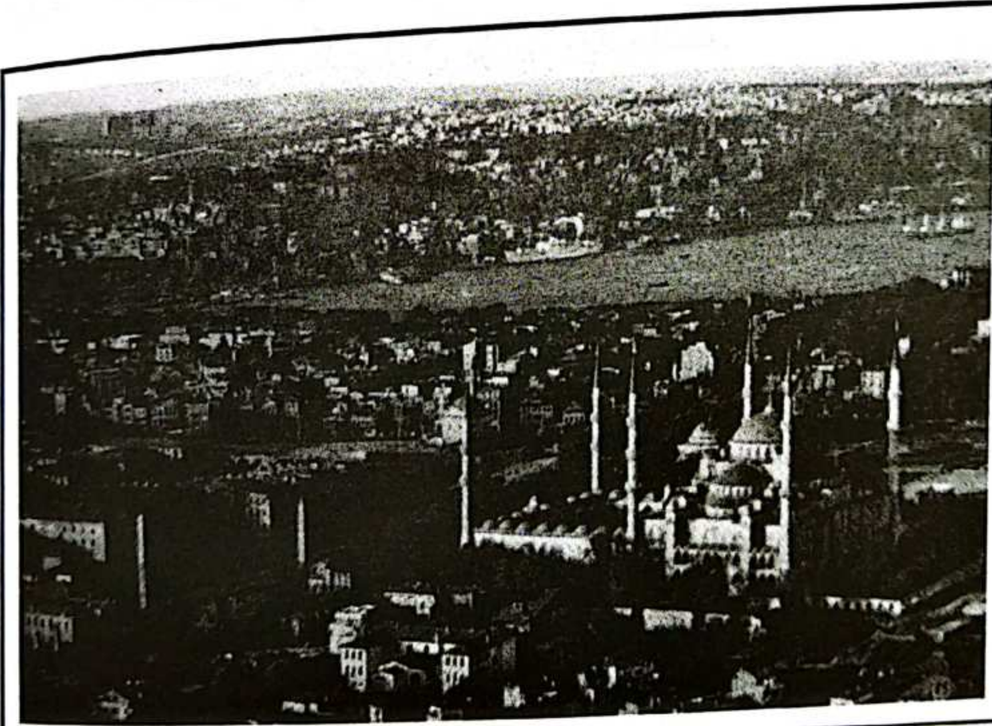
[١] البشناق هي البوسنة اليوم.

[٢] كان قد ترك المدرسة وهو بعدُ يافع.

أضحت رؤوسهم شبيهة بساعات اختلّ توازنها ولا تعمل بصورة منتظمة، الرقّاص يعمل لكن العقارب تتحرّك تارة ببطء ملحوظ وطوراً بسرعة فائقة.

## ٢- حياته في استانبول:

أوصلت ظروف الدهر والقدر وحدها الجزّار الى ما غدا عليه لاحقاً، فقد ترك البوسنة مُلاحَقاً، ناجياً بنفسه، تحوّل الى شريد يستجدي مأواه: يسرق، ينهب، يسطو لسدّ رمقه. وهكذا تقاذفته أنواع الحياة من مكان الى آخر، يسعى للوصول الى استانبول، لأن مخيّلته الساذجة كانت تصوّر له المدينة العظيمة مرتعاً يسعد فيه الجميع.



مدينة استانبول: حلم الجزّار الأكبر

ويصل ذاك الفتى البوسني الى العاصمة التركية، وهناك كانت تنتظره

خيبات أمل مريرة، فقد اصطدم بالواقع الملموس، ورأى الحياة عكس ما كان يحلم بها، فلكي يكسب قوته كان مضطرّاً الى أن يحمل الأثقال في المرفأ ويقوم بمهام تحميل السفن وهو يخضع لهراوة مراقب بطّاش كان يُذِلُّه ويرهقه ويشتمه، وأحياناً يضربه بالسوط كلّما تهاون أو تنفّس الصعداء. فالبؤس بحدّ ذاته رهيب، ولكن إن اقترن بالذلّ والضرب أصبح الأمر لا يُطاق.

واذ أُصيب ذاك البشناقي بالإحباط، عمل كبحّار على متن أحد المراكب. لكن الأجواء البحريّة الرتيبة، ومشاجراته مع الربّان، والضربات التي كان يتلقّاها من البحّارة الأكبر منه سنّاً، لم تلبث أن أشعرته بالاشمئزاز والنفور من هذه المهنة المضنية التي اختارها الفقر له.

وذات مساء، إذ رسا المركب الذي كان يعمل عليه عند أحد شواطئ آسيا الصغرى، راح ذاك الفتى ينظر الى السماء الكالحة في الظلام الدامس، وتوالت عليه الهموم ، فراح يفكّر في وسيلة تنقذه من هذا الكابوس الذي ابتلي به، وقرّر على الفور ترك المركب، وفرّ هائماً على وجهه متنقّلاً من مكان الى آخر ، مستعطياً الناس، مستدرّاً المال بوسائل شتّى، يحتال على هذا ويسرق ذاك، يدخل المنازل قسراً، فما إن يُطرد من بيت حتى يدخل آخر، وغالباً ما كان ينام في العراء ويلتحف السماء.

وهكذا أمضى أشهراً عدّة في أرق دائم وبؤس وشقاء وحرمان. ولم تكن بعض المنازل التي وفّرها الحكّام آنذاك في استانبول للمتسوّلين، والتي لجأ اليها، الاّ أكواخاً وأشباه خرب حقيرة لم يتمكّن من تحمّل بؤسها وقساوتها، فملّها وهجرها لينتقل الى أحد المرافئ ليعمل مجدّداً كبحّار.

## ٣- انتقاله الى مصر:

ذات يوم، وبينما كان منزوياً قـرب الشـاطئ، يدخّـن غليونـه الـتركي ليسرّي[٣] عن همومه، استرعى انتباهه مرور تـاجر يهـودي طاعن في السنّ، أثقلت السنون ظهره فَحَنَتْـهُ، يسـوق عـدداً مـن الغلمـان يرتـدون ثياباً رثّـة، حفاة، وجوههم كئيبة شاحبة اللون، وهذا اليهودي قد امتهن تجارة الرقيق، ويصدّر بضاعته الى مصر. اعترضه ذلك البوسني، فنظر اليه التاجر وسأله، ما الأمر؟ فأجاب أنا على استعداد لأن أبيع نفسـي، فالحرّيـة قـادتني الى الشـقاء والتعاسة، فربما آلت بي العبودية الى السعادة. تفحّصه اليهودي بإمعـان، فـإذا هو شاب وسيم الطلعة، ممشوق القدّ[٤]، عريـض المنكبـين، يجمـع بـين القـوّة العضلية واللطافة الأنثوية، أسود الشعر، ورديّ الوجنتـين. أُخـذ التـاجر بهـذا الفتى، وارتسمت على وجهه علامة الرضى لأنه سيسترقّه مقابل تسـفيره الى مصـر، غـير أنّـه بقـي لديـه ثلاثـة أشـهر دون أن يتقـدّم راغـب في الشـراء. وبوصوله الى مصر، عرضه ثانية، فاشتراه تاجر من أهل البلد، وقبل أن يعرضه هذا الأخير للبيع من جديد، جعلـه يعتنـق الإسـلام وسمّـاه "أحمـد"، ولم يُسِئْهُ تبديـل دينـه واعتنـاق ديـن جديـد، فسيّـان لديـه أبقـي مسـيحيّاً أم تحـوّل الى الإسلام، لأن جُلَّ ما كان يصبو اليه هو المال والجاه، وبأيّة وسيلة كانت.

وقد لفت صبا أحمد وقوّته انتبـاه رجـل مشـهور في ذلـك الوقـت هـو "علي بك الكبير"، فاشتراه مقابل اثني عشر ألف فرنك. وهذا الفتى الذي ظلّ

---

(٣) ليسرّي: ليفسّح.

(٤) القدّ: القوام.

معروضاً للبيع شتاءً بكامله سيقول عنه نابوليون بونابارت بعد سبع وأربعين سنة: "لولا هذا البشناقي الرقيق، لغيّرت وجه العالم".

خمسة وعشرون ألف مملوك كانوا يحكمون مصر حينذاك[٥]، وجميع هؤلاء المماليك يتحدّرون من سوق النخاسة، أو باعهم أهلٌ فقراء بأسعار بخسة. كانوا يؤلّفون مجتمعاً خاصاً فريداً من نوعه في التاريخ، إذ يختلف عن غيره من المجتمعات، فلا تربطه رابطة وطنية أو عائلية أو دينيّة، مع انه كان ينتمي شكلياً الى الديانة الإسلامية على المذهب السنّي. ولا يتقن أفراده سوى ركوب الخيل ولعبة السيف، ويعيشون دون ضوابط قانونية أو وحدة تقاليد وعادات.

كان التجّار يقتادون مملوكيهم الى مستودعات الاسكندرية والقاهرة حيث يوكل أمرهم الى موظّفين ينظّمونهم تمهيداً لعرضهم للبيع. وغالباً ما كان يتمّ اختيارهم من أقوياء البنية والشكيمة ووسيمي الطلعة، والمهيّئين لرياضة الفروسيّة والجياد، وبعد عرضهم عند البائع ينتقلون الى منازل الولاة ليصبحوا وصفاءَهم أو جنودهم، وأحياناً ورثتهم. وهذا الخطّ الفريد كان يجعل من المماليك أشخاصاً لا مثيل لهم في التاريخ، لا يدينون بمذهب وإن دفعتهم الضرورة الى اعتناق الاسلام، ولا يؤمنون بعقيدة فلا يتخلّون عنها الى سواها. وبحكم نشأتهم بعيدين عن أهلهم وأرضهم، لم يشعروا بالانتماء الوطني، لذا لم يتورّعوا عن السلب والنهب حيثما حلّوا، حتى في مصر التي حكموها سنوات طويلة.

---

[٥] راجع كتاب السلطان سليم الأوّل - المماليك والعثمانيون، مكتبة حبيب - ١٩٩٥.

كان التمرّد ميزتهم الطبيعيّة، فهم خليط من اللغات والديانات والأجناس والأعراق، جمعتهم الصدفة . غرباء عن البلد، يستسلمون لنزواتهم ويسلكون طرق الفساد منذ الطفولة، ويشعرون بحاجة جامحة الى الإستقلالية والفوضى. ومثل هذه البلبلة لم يتّصف بها مجتمع في أيّ حقبة من التاريخ .

كانت حياتهم صراعاً دائماً متواصلاً، يتناحرون ويقتل بعضهم بعضاً تارة لانتزاع السلطة وطوراً للاستيلاء على عبيد أحداث، وتتلاحق المعارك وتتواصل دون توقّف. وهكذا اتخذ الحكم المصري شكل عرض فروسي، وعندما كان فريقان من الخيّالة يتواجهان في أحد الأزقّة، كان المارّة يلوذون بالفرار تاركين الساحة للمتقاتلين، ويعمد سكّان الحيّ الى اقفال أبوابهم، فيما يُدخل الباعة، في دقائق معدودة، بضاعتهم المعروضة وينتظرون من بعيد نتيجة الصراع. وما إن تحسم المعركة لصالح أحد الفريقين حتى تعود الحركة الى طبيعتها و كأن شيئاً لم يكن، ويبدأ التجّار بتزيين محالهم من جديد، وبعد أقل من ساعة تزول معالم الصراع، فلا يبقى لها أثر عند هذا المنعطف الذي شهد لعبة الحياة والموت.

## ١- وصول "علي بك الكبير" الى الحكم سنة ١٧٦٠ :

هكذا عاشت مصر عشرات السنين في خضمّ من الفوضى نتيجة الصراعات المتلاحقة والدامية بين الباشوات المتناحرين في ما بينهم، كلّ يريد السلطة والاستئثار بها. ووسط هذه المعمعة، لمع اسم شاب مسيحي يوناني الأصل، اختطفه أحد تجّار الرقيق في أثناء قيامه برحلة صيد، وباعه من كبار أغنياء المماليك في مصر الذين سمّوه "علي"، وأصبح في ما بعد "علي بك

الكبير".


علي بك الكبير

كـان المماليك في مصـر منقسمين حزبَـين متعـادِيَيْن: الأوّل يدير شؤونه كل من "عثمان بـك" و "ابراهيـم بـك" و "علـي بـك" الذي سُمِّي "الكبـير" (لتمييزه عن "علـي بـك" آخـر لُقّب بالصغـير، وهو شخص سريع الانفعـال كثير الصخب وعديم الكفاءه).

أما الحزب الثاني فكان يرئسه "حسـين بـك" و"عبد الرحمن بـك" و "الباشا علي" الذيـن كـانوا يسعون لاعـادة سلطة البـاب العـالي المتداعيـة في مصر. وهذا ما تسبّب في انقسام الفريقين حتى حُسِم الأمر لصالح "علي بـك الكبير" الذي تمكّن في ما بعد من حصر السلطة في يده.

كان "علي بك الكبير" رجلاً سريع الغضـب، متّقـد النشـاط، متوثّـب الطاقة، متحمّساً، ثاقب الرؤية، على قسطٍ كبيرٍ مـن الذكـاء دون أن يتلقّـى علماً أو ديناً او يتلقّـن فلسفة، كـان يحلـم بـاحتلال-سـوريا وآسـيا الصغـرى واستانبول والقضـاء على الدولـة العثمانيـة، متمنيّـاً أن يتقاسـم اشـلاءها مـع قيصرة الروسيا "كـاترين الكـبرى" وأن ينشـئ لنفسـه امبراطوريـة جديـدة في الشرق، فيخترق برزخ السـويس ويفتـح الطريـق المباشـر على البحـر الأحمـر للتجارة مع الهند والشرق الأقصـى. الاّ أن المُحيطـينَ بـه لم يستوعبوا مراميـه

ومخطّطاته، ولم تكن لديهم بالتالي القدرة على مؤازرتـه، وكـان هـو في كثير من الأحيان يستسلم لما يمليه عليه منجّمه الذي غالباً ما كان يخدعه، كما ان العديد من ضبّاطه كانوا يخونونه؛ كـل هـذا كـان مـن شـأنه أن يعيـق تحقيق أهدافه وانجاز مشـاريعه. ثـم ان جهلـه العميـق في كـلّ مـا يمـتّ الى السياسة والادارة والأعمال بصلة كان يشلّ موهبته. لقد كانت له مواصفـات الرجـل العظيم، لكنّه كان يفتقد الوسائل التي تجعل منه رجلاً عظيماً.

كان "علي بـك" يملـك بيتـاً صغـيراً في منطقـة المرافـئ المصريـة تدعـى "القلعة السلطانية"، وكان أكـثر المقرّبين منـه طبيـب يهـودي ومنجّـم قبطـي ومحمـد ابـو الذهـب الـذي اشـتراه مـن سـوق النخاسـة (كمـا اشـترى أحمـد البشناقي)، وكان أبو الذهب يحتلّ دائمـاً مركـز الصـدارة بينهـم، وقـد جعل "علي بك" منه قـائده، يرسـله في كثـير مـن الأحيـان للقضـاء علـى خصومـه ويستشيره في أمور عدّة، لا سيّما الصعبة منها. أما "أحمد"، فقد عيّنه جـلّاداً بعد أن أعتقه، فَعَلَتْ مرتبته، الاّ انه بقي في المرتبة الثانية، ولم يُؤخذ برأيـه في الحوادث الخطيرة. من هنا نشأ الحقد والحسد بين المملوكين، وترصّـد الواحـد منهما الآخر.

## ٢- دور "أحمد البشناقي" في محاولة الانقـلاب علـى "علـي بـك الكبير":

يشير تاريخ أحمد البشناقي الى انـه كـان خـارق الذكـاء، وداهيـة مـن الدواهي، وفي الوقت عينـه كـان غـدّاراً لا يرعـى حرمـة للصداقـة ولا يحفـظ مودّة، ولا عرفاناً بجميل. وضع نصب عينيه بلوغ السلطة بـأيّ ثمـن، وبشـتّى

الوسائل، ولو على جثث الناس، والدليل على ذلك اشتراكه مع بعض مماليك "علي بك الكبير" بحركة انقلابية للاطاحة به، أملاً بالوصول الى أعلى المراتب. ولما فشل فرّ ليلاً من القلعة خوفاً من افتضاح أمره، ضارباً عرض الحائط بكلّ ما فعله له سيّده من خدمات، ليس أقلّها اعتاقه اياه وتعيينه موظّفاً لديه والعناية به.

## ٣- تعيين أحمد البشناقي متسلّماً على قرية البحيرة:

### أ- في خدمة صالح بك وعبد الله بك.

بعد فشل الانقلاب، انتقل أحمد البوسني لخدمة المدعو "صالح بك" أحد متسلّمي سناجق مصر، ومكث عنده فترة، ثم ما لبث أن انتقل الى خدمة كشّاف آخر يدعى "أحمد كاشف شنن" وبقي عنده فترة طويلة حتى وفاته، فانتقل ليعمل في خدمة "عبدالله بك" متسلّم قرية البحيرة، الذي خرج ذات مرة لمحاربة عربان البحيرة، فانقضّوا عليه وصرعوه. عندئذٍ تقرّب البشناقي من أحد الكشّافين ويُدعى "ذو الفقار"، وتودّد اليه، حتى أسند اليه ادارة قرية البحيرة خلفاً لعبد الله بك.

### ب- انتقام أحمد البشناقي من عربان البحيرة.

عندما أُسندت الى أحمد البشناقي ادارة منطقة البحيرة، راح يترصّد عربانها وينصب لهم الكمائن، حتى وُفّق ذات مرّة الى قتل أربعة على الأقل من كبار قومهم انتقاماً لسيّده "عبد الله بك"، وأرسل رؤوسهم الى "علي بك الكبير" سيّد مصر، ومنذ تلك الحادثة لُقّب بـ "الجزّار". هذا عدا

الضروب الوحشية التي كان يمارسها بحقّ العباد، إذ لم يكنّ أية رحمة لأحد، ولم تخالج نفسه الشفقة، وقد يكون مردّ ذلك الى قساوة الحياة التي عاشها في طفولته، وبخاصة ان القلق كان يرافقه أينما حلّ، فضلاً عن الفقر المدقع الذي عاشه. وقد طَبَع كلّ ذلك حياته وشخصيّته بمزاج حادّ، وبعصبية مفرطة، وحذرٍ بالغ.

وتقديراً لموقف أحمد الجزّار في البحيرة، استدعاه "علي بك" وأسند اليه وظيفة جوّال لمراقبة اللصوص وقطّاع الطرق والفاسقين والخارجين على القانون، فقام بالمهمّة خير قيام، وذاع صيته في البلاد حتى لم يعد هناك منْ يجرؤ على القيام بأعمال مخلّة بالأمن ، فلقي استحسان "علي بك" الذي أغدق عليه الهبات، واعداً اياه بالمزيد من المساعدات. وهكذا بدأ نجم الجزّار يتألّق، ووضعه المادي والمعنوي يتحسّن وثقته بنفسه تشتدّ.

## ٤- إنتقام "علي بك الكبير" من أعدائه:

### أ- الجزّار يشارك في مقتل "حسن بك جوجو".

كان لعلي بك عدد كبير من المناوئين والخصوم، يزاحمونه على منصبه، ويخطّطون للإيقاع به والقضاء عليه. فكان لا بدّ اذاً من تصفية هؤلاء حتى يستتبّ حكمه.

ولمّا كان أحمد الجزّار المطيع المجيب لسيّده، الذي لا يرفض له أمراً مهما صعب، والمؤهّل للقيام بالتصفيات الجسدية من دون أن يقرّعه ضميره، فقد استعان به لتصفية حساباته مع أعدائه، ولعلّ أبرزهم المدعوّ "حسن بك

جوجو".

استدعى علي بك الجزّار وأحد كبار قادته العسكريين محمد الملقّب بـ"أبي الذهب" لكثرة عطاءاته وهداياه بالنقد الذهبي، وأمرهما بقتله. وتنفيذاً لأوامر سيّدهما، راحا يترصّدان حركات "جوجو"، وعندما خرج ذات يوم من منزله بصحبة أحد أعوانه، تصدّى له الجزّار وأبو الذهب معاً وأطلقا عليه الرصاص فأردياه. وهكذا يكون "علي بك" قد تخلّص من "حسن جوجو" أحد أكبر مناوئيه، واكتسب أحمد بنتيجة ذلك لقب "بك" إضافة الى لقبه الأوّل- "الجزّار".

### ب- أبو الذهب يشارك في مقتل "صالح بك".

لم يبقَ من خصوم "علي بك الكبير" غير "صالح بك" الذي كان يخشى شراكته في الحكم، وخصوصاً بعد أن لمس منه استياءً لاغتيال "حسن جوجو". لهذا طلب مجدّداً من أحمد بك الجزّار وأبي الذهب التخلّص منه. بيد أن الجزّار رفض تلبية رغبة سيّده، لانه كانت تربطه بصالح بك مصلحة، إذ كان قد وعده سرّاً بتسليمه سنجقاً في مصر. ولكنّ علي بك بعد أن سمع جواب الجزّار الرافض، واستدراكاً من أن يسارع لإعلام "صالح بك" بالأمر، توجّه اليه بالقول: "حيّاك الله يا جزّار ! لقد تحقق عندي أنك أمين في حفظ العهود والوداد، وما قصدي بما قلته لك غير اختبارك وتجربتك".

الا ان الجزّار المعروف بذكائه ودهائه، لم يحمل كلام سيّده على محمل الجّد، و لم يصدّقه، فسارع الى صالح بك وأعلمه سرّاً بما جرى، وحذّره من نوايا "علي بك الكبير"، غير ان صالح بك قال للجزّار: "اني لا أصدّق أن

أخـي "علـي بـك" يفكّـر فيَّ بسـوء، لأن العهـود بيننـا وثيقــة منــذ تسـلّمنا الأحكام". أمّا "علي بك" فتوجّه الى دارة صالح بك وقـال لـه: "هـل أخـبرك الجزّار يا أخي بما طلبته منه بغيـة اختبـاره؟" أجابـه: نعـم. فـأردف علـي بـك قائلاً: "وأنت بدورك يجب أن تجرّب رجالك وتختبرهم كما اختبرت أنـا أبا الذهب والجزّار".

وبعد أن عاد " علي بك" الى منزله، استدعى أبـا الذهـب واختلـى بـه زمناً يخطّطان للتخلّص من صالح بك والجزّار، إذ لم يعد من الممكن الركـون اليهما بعد الآن وهما يشكّان في سوء نواياهما، وقد يعمـلان بدورهمـا علـى التخلّص منهما.

وذات يوم، خرج "صالح بك" من منزله للترفيه عن نفسـه يرافقـه أبـو الذهب والجزّار، وفي الطريق شهر ابو الذهب سيفه وضـرب بـه عنـق "صـالح بك" فخرّ صريعاً على الأرض مضرّجاً بدمائه. أما الجزّار، فقد هاله ما رأى، ولكن لم يكن في يده حيلة، فترك مسـرح الجريمـة كئيبـاً كاتمـاً غيظـه، وقفـل عائداً الى داره.

## ٣ الجزّار في بلاد الشام وجبل لبنان

بعد مقتل "صالح بك"، وبعد المؤآمرات التي حيكت على مسمع ومرأى من الجزّار، شعر أنه لم يعد في إمكانه الركون الى سيّده علي بك ولا الى أبي الذهب، فصمّم على مغادرة البلاد خوفاً من أن يكون هو الضحيّة التالية. وبينما كان يستعدّ للفرار في الصباح الباكر، إذا بالمماليك يحاصرون منزله، فلم يخذله دهاؤه، وكانت احدى نسائه خارجة الى الحمّام، فأخذ ملابسها وحجابها الكبير، وخرج من المنزل متنكّراً، وصعد الى العربة التي كانت تنتظرها. ورأى الحرّاس امرأة محجّبة فتركوها وشأنها. وبلغ الجزّار الاسكندرية التي مكث فيها أيّاماً لينتقل بعدها الى حلب فبرّ الشام تجنّباً للمواجهة مع أبي الذهب.

وعاد الجزّار الى حياة التشرّد من جديد، وعضّته الحاجة التي ظنّ لفترة أنه تخلّص منها الى غير رجعة. ومن برّ الشام سافر الى بيروت، وبعدها قفل عائداً الى غزّة متنكّراً هذه المرّة بزي أرمني، ومنها انتقل الى مصر حيث راح يتعاطى التجارة مع تجّار من الأرمن، ولجأ الى الحيلة والدهاء للحصول على المال الذي كان في أمسّ الحاجة اليه، فأوهم أحدهم بأنّه من كبار التجّار، وطلب منه قرضاً كبيراً من المال بانتظار أن تصله بضاعة مزعومة. وبعدما حصل على المبلغ، فرّ به متخفيّاً الى استانبول.

وفي العاصمة التركية، صمّم الجزّار على العمل في حاشية السلطان العثماني على غرار عمله السابق لدى "علي بك الكبير"، لكن تبيّن له أن عليه

رشوة وزير أو باشا كي يصل الى مبتغاه، وهـذا لـن يحصل بالتأكيد بسبب افتقاره الى المال. وبقي في استانبول أربعة أشهر - من تشرين الأوّل سنة ١٧٧١ حتى شباط سنة ١٧٧٢ - اطلّع خلالها على أسرار السياسة العثمانية (التي طبّقها في ما بعد عندما أصبح والياً من ولاة السلطنة العثمانية). ولّما لم يوفّق في استانبول ، فكّر بالسفر من جديد، فانتقل الى بيروت على متن إحدى السفن، ومنها توجّه الى دير القمر قاصداً الأمير يوسف الشهابي حاكم الإمارة اللبنانية آنذاك، وبعدها انتقل الى دمشق وكان له من العمر ثلاثة وثلاثين سنة.

## ١- حركة ظاهر العمر:

### أ- أصله:

لجأ الجزّار الى بلاد الشام، وكان واليها آنذاك عثمان باشا الذي كان على أتمّ الوفاق مع الدولة العثمانية لشدّة اخلاصه لها، وبالرغم من ذلك فقد نازعه ظاهر العمر على حكمها.

وظاهر العمر هو ابن شيخ قبيلة بني زيدان الحجازية الأصل، تولّى منطقة صفد في فلسطين سنة ١٧٧٣ بعد موت ابيه الذي كان قد أسند اليه ولايتها الأمير بشير الأوّل. كان ظاهر العمر رجلاً عصاميّاً، كريم النفس، أبيّ الأخلاق، فأقام علاقات طيّبة مع أقربائه وأصدقائه، وخصوصاً مع والي صيدا درويش باشا الذي كان يقدّم اليه الهدايا الثمينة في كل مناسبة حتى توطّدت العلاقات بينهما. فطلب الظاهر منه التزام منطقة طبريّة وجوارها

لحمايتها من الغزوات، لا سيّما من التركمان والعربان الذين كانوا يسلبون وينهبون ويقطعون الطرق. فوافق الوالي على طلب الظاهر الذي لم يكتفِ به، بل راح يطلب المزيد من الإلتزامات لمناطق أخرى، فكان له ما أراد.

**ب- استيلاؤه على فلسطين:**

لم يتوانَ الظاهر عن نشر العدل ومنع التعدّيات عن كلّ المناطق التي تولّى التزامها. فذاع صيته، وراحت غالبية المناطق تطالب به أو يلجأ اليه أهلها هرباً من جور ولاتهم.

وهكذا كان الظاهر يلتزم المناطق الواحدة تلو الأخرى، باستثناء عكّا التي طلب التزامها من والي صيدا فرفض طلبه. فلم يكن منه إلاّ ان دخلها بقوّة السلاح واستولى عليها، وعمل على تحصينها وتشييد أبراجها وجعل لها سوراً كبيراً، وحسّن مرفأها وشجع التجّار على ارتياده (ولا سيّما الفرنسيّين منهم).

وهكذا راح يبسط نفوذه شيئاً فشيئاً على مناطق فلسطين وجوارها، دون مباركة الدولة العثمانية التي أقلقها توسّعه واعتبرته تمرّداً عليها وخروجاً على أوامرها، وخصوصاً بعد أن كان يتلكّأ أحياناً عن أداء ما تعهّد به من ضريبة، حتى نَمَت ثروته وتعاظم نفوذه. ولم تتوقّف طموحاته عند هذا الحدّ، إنما عمل للاستيلاء على مناطق أخرى ذات مواقع استراتيجية كمدينتي صيدا ودمشق ليتمكّن من تدعيم حكمه أكثر فأكثر، وراح يترقّب الأحداث عن كثب ويتحيّن الفرص.

### ج- اتصاله بالدولة الروسية:

وبالفعل، لم تلبث الظروف أن واتته اعتباراً من السنة ١٧٦٨، وذلك عندما نشبت الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية، وهي حرب استمرّت طويلاً (حتى السنة ١٧٧٤)، وقد خرج منها العثمانيون مُنهكين. استغلّ الظاهر هذا الضعف، فاشتدّت عزيمته، وقرّر الاستيلاء على مدينة صيدا.

وبالفعل، وجّه اليها قوّة أخضعتها وطردت واليها "درويش باشا" ابن عثمان باشا والي دمشق، ونصّب عليها حاكماً من انصاره، وتوقّف عن دفع المال للدولة العلية. و لم يكتفِ بذلك، بل تقرّب من الدولة الروسيّة بايعاز من مستشاره الخاص ابراهيم الصبّاغ من أهالي عكّا. وروسيا بدورها كانت تشجّع باستمرار حركات التمرّد على العثمانيين، إمعاناً في إضعافهم واشغالهم في قمع تلك الحركات. و لم يتوقّف طموح ظاهر العمر عند حدود ولاية صيدا، إنما تعدّاها ليتدخّل في شؤون بلاد الشام ويبسط نفوذه عليها كاملة، مقتنصاً ظروفاً أخرى، ابرزها بداية ظهور تمرّد في مناطق عديدة منها، وبخاصة في يافا والرملة، لكثرة المظالم التي كان ينزلها الوالي العثماني بالسكّان. هذه المظالم استغلها كذلك "علي بك الكبير" الذي بدأ العمل على كسب تلك الشعوب المضطهدة واستمالتها اليه، ممهّداً لذلك برسائل يطمئنهم فيها الى أن خلاصهم قد حان إن هم ساندوه عند قدومه الى دمشق ليشنّ حملة على عثمان باشا ويطرده من البلاد.

## ٢- استقلال "علي بك الكبير" في مصر سنة ١٧٦٨:

ثمّة عوامل وظروف داخلية وخارجيّة عديدة ساعدت "علي بك" على استقلاله في مصر واقامة دولة قوية على الضفاف الجنوبية للمتوسط. من هذه العوامل اعتماده سياسة اصلاحية اداريا واقتصاديا وعسكرياً، فقد اعتنى بالتجارة وحسّن المرافئ، وأقام أقنية الريّ، ونظّم الجيش وقوّاه وزاد عدده، وراح يوطّد الأمن تدريجيا بعد أن ضرب خصومه في الداخل ليثبّت دعائم حكمه.

أما على الصعيد الخارجي، فقد استفاد من ضعف السلطنة العثمانية، والعلاقة المتينة التي كانت تربطه بامبراطورة روسيا (كاترين الثانية) وبقيصر النمسا، وتحالفه الوثيق مع والي عكّا الشيخ ظاهر العمر. أضف الى ذلك استغلاله الحرب الروسية - العثمانية التي طال أمدها، بالإضافة الى الوعد الذي تلقّاه من قائد البحرية الروسية بأن سفنه ستقدّم له المساعدة والعون عند الحاجة. هذه العوامل كانت كافية لتشجيعه على اعلان انفصاله عن الدولة العثمانية، وذلك سنة ١٧٦٨.

لم يكتفِ علي بك باستقلال مصر، بل كانت له مطامع توسّعية. لهذا وجّه انظاره الى الخارج، فسيّر سنة ١٧٧٠ حملة الى الحجاز اصطدمت بقوّات عثمان باشا، وانتصر عليها وطردها من المنطقة. ومن ثم توجّه الى بلاد الشام للسيطرة عليها، ولكسر شوكة واليها في عقر داره.

أ- حملة "علي بك الكبير" على بلاد الشام واحتلال دمشق:

لم يكن هدف علي بك من احتلال سوريا طرد عثمان باشا عن ولاية دمشق كما زعم، إنما الهدف الحقيقي هو إعادة تأسيس السلطنة المملوكية التي كانت مسيطرة على سوريا ومصر معاً، والتي سقطت سنة ١٥١٦ على اثر معركة مرج دابق الشهيرة، ومن ثمّ معركة الريدانية قرب القاهرة سنة ١٥١٧. من هذا المنطلق، حرّك قوّاته سنة ١٧٧٠ من مصر برّاً وبحراً باتجاه بلاد الشام لمؤآزرة ظاهر العمر. فسيطر على غزّة والرملة ويافا وغيرها من المناطق التي استقبله اهلها بالترحاب لأنهم كانوا ناقمين على مظالم عثمان باشا، ومن ثمّ تابع زحفه دون عناء، إذ اعلنت عدة قرى في فلسطين ولاءها له. وبعد ذلك تقدّمت قوّاته باتجاه دمشق، وكان "علي بك" قد وجّه بياناً الى اهاليها يوضّح الدوافع الظاهرة لاحتلال المنطقة، كما أوضح للسكّان انه ليس خارجاً على السلطان (بغية كسب رضاهم حتى يحقّق أهدافه المنشودة)، ولكنّ هذا لم يخدع الباب العالي الذي أصدر فرماناً بهدر دمه.

ب- أبو الذهب يؤآزر ظاهر العمر:

بعد سقوط يافا، وعندما كانت المعارك على أشدّها عند أطراف بلاد الشام، تابعت القوّات المشتركة زحفها نحو دمشق والتفت قوّات عثمان باشا، فدارت معارك ضارية وشرسة كان الفريقان يحشدان الطاقات لها، وكانت قوّات عثمانية اضافية تصل تباعاً الى دمشق لمؤآزرة واليها، وهذه القوّة أرهبت ظاهر العمر وقوّات علي بك معاً، ممّا دفع بهذا الأخير الى ارسال تعزيزات إضافية وضخمة الى بلاد الشام.

لم يكن الظاهر مطمئناً لهذه القوّة التي أُسندت قيادتها لأبي الذهب، على الرغم من أنّها ستغيّر موازين القوى لصالحه ومن كونها كافية لتحقيق الانتصار العظيم، هذا لأنه سيفقد كل أمل بالسيطرة على الحملة وباتخاذ المبادرة لاحتلال دمشق.

تجاه هذا الواقع، تخلّى ظاهر العمر عن قيادة القوات الزيدانية لأبنائه، وعاد هو الى عكّا تحسّباً لأيّ طارئ.

ومهما يكن من أمر، فقد استمرّت المعارك حامية الوطيس، وزاد من حدّتها وصول قوات ابي الذهب في ايار سنة ١٧٧١ الى مشارف دمشق. وقد أرسل هذا الأخير انذاراً الى عثمان باشا لتسليمه المدينة ومغادرتها فوراً، الا ان عثمان باشا لم يأبه للإنذار وقرّر المواجهة مهما تكن النتيجة.

كان القتال هذه المرّة أشرس من ذي قبل، بحيث كانت المعارك تدور رحاها في الأحياء والشوارع. وبعد صراع دامٍ وعنيف، لم يتمكّن عثمان باشا من الصمود أمام القوات الضخمة التي كانت بامرة ابي الذهب، والتي كانت تفوق مقاتليه عدداً وعدّة وتنظيماً، ففرّ الى خارج دمشق. عند ذلك بدأت المفاوضات بين كبار أعيان المدينة وأبي الذهب لوقف القتال. الاّ أن أبا الذهب صمّم على احتلال دمشق، وتمّ له ذلك، فعمّت الفرحة في البلاد، وبخاصة في مصر، حيث أقام "علي بك الكبير" الاحتفالات بهذا النصر الساحق، فحلمه أصبح وشيك التحقيق، ولا يفصله عنه سوى بعض الترتيبات الأمنية التي سيجريها.

ج- انقسام الأمراء اللبنانيين بين مؤيّد لأبي الذهب ومؤيّد للدولة العثمانية:

عندما وقف أبو الذهب على أبواب دمشق اتصل بالأميرين الشهابيّين: **منصور** الذي كان حاكماً على جبل لبنان، **ويوسف** الذي كان حاكماً على جبيل، طالباً العون والمساعدة العسكرية، فوقف الأمير منصور الى جانب أبي الذهب بناء على نصيحة ظاهر العمر، وكان الهدف من هذا التأييد التغلّب على الأمير يوسف، في حين أيّد الأمير يوسف عثمان باشا والدولة العثمانية. ولما فشلت سياسة الأمير منصور أصبح موقفه حرجاً.

## ٣- تأثُّر لبنان بأحداث المنطقة:

لم يكن الأمير يوسف الشهابي بمنأى عن الصراع، لا في داخل الإمارة ولا في خارجها، خصوصاً وأنّه كان يتولّى ادارة شؤون بلاد جبيل منذ سنة ١٧٦٣ مدعوماً من والي طرابلس محمد باشا العظم، فاصطدم بآل حمادة الشيعة زعماء منطقة جبيل، ووقعت منازعات بينهما، فتغلّب عليهم بمعاونة الجنبلاطيّين. كما اشتبك في سنة ١٧٦٧ مع أمراء بني حرفوش في منطقة بعلبك بايعاز من الدولة العثمانية، وطرد حكّامها وبسط سيطرته عليها.

كانت هذه المعارك مفيدة له بحيث أكسبته خبرة عسكرية سيحتاج اليها في ما بعد. ورضيت عنه السلطات العثمانية لانه كان ينفّذ أوامرها على أكمل وجه، ودون تردّد، فاستخدمته لضرب عصاتها، ونجحت في أغلب الأحيان. بالمقابل، راحت تقدّم له كلّ دعم ضدّ عمّه الأمير منصور ليتسلّم

حكم امارة جبل لبنان. فتألّق نجمه، وازداد نفـوذه، وخصوصاً في الأوساط الدرزيـة في الجبـل بعـد أن قدّمـت لـه الدعـم. هـذه التطـوّرات السياسـيّة والعسكريّة انعكست على توازن القـوى في جبـل لبنـان، ففي حين اعتمد الأمير يوسف على "عثمان باشا" والي دمشق في ترسيخ حكمه، استمدّ الامير منصور قوّته من "عبد اللـه باشـا" والي صيـدا. غير ان الامير منصـور كـان مكروهاً من الاهالي بسـبب استعلائه علـى أعيـان الجبـل، ممّـا أدّى الى بـروز معارضة ضدّه لتدعم مرشحاً جديداً للإمارة ضد الأمير يوسف الشهابي.

## أ- الأمير يوسف يتسلّم امارة جبل لبنان:

ثمّة ظروف سياسيّة وعسكرية لعبـت دورهـا في تولّـي الأمـير يوسـف الشهابي امارة جبل لبنان، من ابرزها وصول محمد ابي الذهب الى بلاد الشام ليدقّ أبواب دمشق ويطرد منها واليها عثمـان باشـا تمهيـداً لإخضـاع المنطقـة بكاملها الى سيّده علي بك الكبير في مصر، وانقسام الرأي العـام بـين الامـراء اللبنانيين بين مؤيّد ومعارض. لكنَّ انقلاب أبي الذهب على سـيّده علـي بـك أحرج الامير منصور، مما حتّم عليه ارسال دعوة عامـة الى الأعيـان اللبنـانيين للحضور الى الباروك، وهناك أبدى رغبته في اعتزال الحكم والتنازل عنه لابـن أخيه الأمير يوسف، فوافق الأعيان. واتخذ الامير يوسف دير القمر مقـرّاً لـه، واستطاع بسط نفوذه لاحقاً على البلاد الممتدّة من طرابلـس شمـالاً الى صيـدا جنوباً.

## ب- حصار الأسطول الروسي لمدينة بيروت:

ساهمت كل الأحداث التي ذكرنـا، وبطريقـة غـير مباشـرة، في بـروز

أحمد باشا الجزّار على مسرح الأحداث ، فكان من نتائجها أن صمّم الأمير يوسف على مهاجمة صيدا واسترجاعها من الشيخ ظاهر العمر.

ولكنّ الأسطول الروسي تدخّل لمساندة ظاهر العمر، وبدّدت قذائفه مقاتلي الأمير يوسف المحاصِرين للمدينة، فانهزموا باتجاه الجبل وبيروت.

وبدأت الاحداث تتسارع في المنطقة، وبدأ كلّ من الفرقاء المتنازعين يعمل لحسابه الخاص تمهيداً لتحقيق مبتغاه. فالأمير يوسف كان يريد الاستيلاء على صيدا التي وقف عند حدودها وسعى لطرد الظاهر منها، لهذا استمر بتعاونه مع الدوْلة العثمانية يُنفّذ أوامرها ولا يرفض طلباتها. وفي المقابل حرص ظاهر العمر كل الحرص على عدم تخلّيه عن أي منطقة من مناطق نفوذه. أما "علْي بك"، فكان يريد استعادة سلطته في مصر التي فقدها اثر انقلاب مملوكه أبي الذهب عليه واضطراره لمغادرتها بعد الضغط الذي تعرّض له، كما انه كا يريد رؤية الظاهر يُرسّخ سلطته في عكّا وأطرافها حتى تكون منطقة عازلة وخطّ دفاع أوّل بينه وبين الدولة العثمانية. ولم يكن الروس خارج اطار النزاعات، إذ كانوا يريدون مضاعفة متاعب العثمانيين، فتدخّلوا ليزيدوا حدّة التوتّر، وأعطوا الأوامر لأسطولهم الراسي في مياه المتوسط؛ مطلع صيف سنة ١٧٧٢، للاقتراب من حيفا ودعم موقفَيْ "علي بك" و "ظاهر العمر" تنفيذاً لاتفاق سابق مع "علي بك".

وهكذا تلاقت مصالح الروس مع مصالح علي بك وظاهر العمر معاً. وكانت الدولة الروسية التي عُرفت بمساندتها الأمراء المحلّيين وتشجيعهم على الانفصال عن الدولة العثمانية تريد اثارة القلاقل فيها لانهاكها. وكان علي

بك والظاهر يريدان انقاذ نفوذهما، فتقدّمت السفن الروسية بناءً على طلبهما باتجاه صيدا لمراقبة الوضع عن كثب.

وفي سهل الغازية، البلدة الجنوبية الواقعة قرب مدينة صيدا، كانت المعركة الحامية التي التحمت فيها الجيوش، وكاد الأمير يوسف أن ينتصر وينتزع صيدا في قتاله ضدّ واليها للمرّة الثانية لولا تدخّل السفن الروسية التي الحقت به هزيمة نكراء، كما الحقت هزائم أخرى بعساكر الشام. وإمعاناً في اضعاف الجبهة العثمانية ومن ساندها، انكفأ العديد من قادة هذه العساكر، ومن بينهم أحمد الجزّار الذي قفل عائداً الى الشام. أما السفن الروسية، فارتدّت باتجاه بيروت لتحطيم السفن العثمانية فيها، ولإرباك الأمير يوسف حليفها. وفي أثناء ذلك، كان الأمير منصور الشهابي (عمّ الامير يوسف) قاطناً بيروت ، ولما علم بنبأ وصول السفن الروسية الى شواطئ المدينة فرّ هارباً مع العديد من أبناء عائلته خوفاً من أن يلحق بهم سوء انتقاماً لموقف الأمير يوسف الذي ساند عساكر الشام. وما كادت السفن الروسية تصل شواطئ بيروت حتى قصفت الأسطول العثماني وتفوّقت عليه، ومن ثم حاصرت المدينة وقصفت أحياءها، وبعدها نزلت القوّات الروسية الى البرّ لتمعن في الأحياء السكنية والمحال التجارية النهب والسلب، ثم عادت أدراجها الى السفن.

## ج- الجزّار في بيروت:

بعد أن استُبيحت بيروت وتعرّضت لشتّى أنواع القهر، سارع الأمير يوسف فجمع عساكر من جبل لبنان وأعلم عثمان باشا بالضرر الذي لحق

بالمدينة وطلب منه النجدة. فأرسل له هذا الأخير، على وجه السرعة، أحمد باشا الجزّار على رأس قوة عسكرية تُقدّر بثلاثمائة مقاتل من المغاربة الأشدّاء. وما إن وصل بيروت حتى تسلّم زمام الأمور فيها بايعاز من الأمير يوسف كي يحصّنها ويحميها من الأسطول الروسي. وبما ان بيروت كانت بادارة الشهابيّين، أرسل الأمير كتاباً الى متسلّمي المسيرة في المدينة والى كبار وجهائها كي يأتمروا بأوامر الجزّار، وتوجّه نحو بيروت حيث التقاه وأكرم وفادته، كما اغتنم فرصة وجود عثمان باشا فيها ليشكره على ما قدّمه له من عون لتخليص المدينة من مناوئيه.

وعندما همّ عثمان باشا بالرجوع الى دمشق، نصح الأمير منصور إبن شقيقه، الأمير يوسف، بأن يعفي الجزّار من مهمّاته كي يغادر المدينة بصحبة عثمان باشا، وحذّره من مغبّة استمرار الجزّار في حكم بيروت لأنه سيتعذّر عليه بعد ذلك اخراجه منها. الا ان الأمير يوسف لم ينتصح، ولم يأخذ بكلام عمّه، فعاد الباشا الى الشام، وبقي الجزّار في بيروت، وكان ذلك في سنة ١٧٧٢. ثمّ ما لبث الجزّار أن طمح الى الاستقلال بحكم المدينة، وراح يبسط سلطته عليها، وإن تحقّق طموح الجزّار فإن لبنان يفقد جزءاً مهمّاً من ساحله، أي مدينة صيدا التي اغتصب حكمها ظاهر العمر، وبيروت التي قد يمتنع الجزّار عن تسليمها وإعادتها الى الأمير يوسف. وبالفعل فقد بدأ بتحصينها، وترميم قلاعها ، وجهّز جيشاً قوياً للدفاع عن أسوارها، ونصب المدافع في كل الاتجاهات. كما أنه حذّر أهالي جبل لبنان من حمل أي نوع من السلاح عند دخولهم بيروت، وأثقل كاهل سكّانها بالضرائب الباهظة. ولم يكتفِ بهذه الإجراءات، إنما راح يحكمها حكماً استبدادياً حتى ضجّت منه الناس.

## د- طرد الجزّار من بيروت:

في هذا الجوّ المحموم، تذمّر الناس من الواقع المأسوي الذي حلّ بهم، وطالبوا الأمير يوسف بانهاء خدمات الجزّار. ونزولاً عند الحاح الأهالي، طلب الأمير يوسف منه الكفّ عن تحصين المدينة ومغادرتها الى دمشق، على أن يتعهّد الأمير للدولة العليّة بحفظ أمن بيروت ودرء خطر السفن الروسيّة عنها. الاّ ان الجزّار ردّ طلبه، وراح يزيد من تحصين بيروت ومن استعداداته تحسّباً لأيّ طارئ.

لم يتلكّأ الأمير يوسف في الدفاع عن حقّه في استرجاع المدينة، فجمع أنصاره وتوجّه الى بيروت بمشاركة مشايخ البلاد وتأييد أعيانها. وكان كلّ من الطرفين يخشى الآخر: الأمير يوسف يخشى غدر الجزّار، والجزّار بدوره يخاف من انتكاسة تنزل به، خصوصاً وأنه لم يكمل استعداداته العسكرية، لهذا طلب مهلة أربعين يوماً ليتسنّى له الخروج من المدينة، فارتضى الأمير يوسف المهلة المطلوبة وانطلت عليه الحيلة، بحيث أن هذه الفترة كانت كافية للجزّار لاستكمال ما بقي من استعدادات وتحصينات وتجهيزات عسكرية وتخزين المؤن لمقاومة أيّ حصار، كما انه زاد من نصب المدافع، وبناء الأبراج وأعلن حالة الطوارئ. ولما انتهت المهلة، طالبه الأمير يوسف بتنفيذ ما تعهّد به، فرفض، وشقّ عليه عصا الطاعة. عندئذٍ سارع الأمير الى باشا دمشق يشكو اليه أمره ويسأله أن يأمر الجزّار بالخروج من بيروت.

ولكن الوسائل السياسيّة فشلت، فصمّم الأمير على إخراجه بالقوة، ولذلك نزل عند نصيحة عمّه الأمير منصور بأن يصالح ظاهر العمر لكي

يناصره على تحرير بيروت.

استنجد الأمير يوسف للنصيحة ، وكتب الى الظاهر يستعين به، وتم لقاء بينهما على جسر الأوّلي شمال صيدا، وجرى بينهما اتفاق تعهّد بموجبه الأمير يوسف أن يدفع للظاهر مبلغاً من المال إن هو ساعده وعاونه على إخراج الجزّار من بيروت. كما جرى اتصال آخر بين الظاهر وقائد الاسطول الروسي الذي كان يجوب البحر بالقرب من شواطئ بيروت للغاية عينها.

وهكذا تمّ اتفاق ثلاثيّ بين الأمير يوسف الشهابي وظاهر العمر وقائد الأسطول الروسي على ضرب بيروت لإنهاء تمرّد الجزّار الذي تفرّد بحكمها.

في سنة ١٧٧٣ تحرّكت السفن الروسية - بأمر من كاترين الثانية امبراطورة روسيا - من قبرص الى بيروت - وضربت طوقاً عليها وحاصرتها. أما الأمير يوسف، فقد تقدّم بدوره من ناحية البرّ وأقفل جميع مداخلها، مدعوماً من الشيخ ظاهر العمر. وبدأت المعركة، وبدأ معها دويّ المدافع من كل حدب وصوب، ودُكّت المدينة وحصونها وأسوارها بعشرين ألف قذيفة من المدفعية الثقيلة لمدة ثمانية أيام، حتى شعر الأهالي بان الأرض كانت تميد تحت أقدامهم، وأن يوم القيامة قد حلّ. واستمرّ القصف ليلاً ونهاراً طيلة أشهر الحصار الأربعة حتى ضاق الناس ذرعاً، وانقطعت الموارد، ونفذت المؤن، وارتفعت الأسعار، وعمّ الغلاء، ودقّ الجوع أبواب بيروت. ويذكر المؤرّخون أن العديد من سكّان هذه المدينة أكلوا لحوم الدواب والكلاب نتيجة الأزمة والحصار، كما تفشّت الأمراض والأوبئة، فمات العديد من الأهالي. ولما رأى الجزّار أن الأمور قد عظُمت، وأصبحت الوطأة شديدة

عليه، وأن استمراره في المجابهة أو حكم بيروت أمر صعب، طلب مهلة لتسليمها فأمهلوه ثلاثة أيام فقط. وكان طلبه أن يضمن خروجه سالماً مع أتباعه حسين تلحوق أحد أصدقائه من كبار مشايخ الدروز، فكان له ما أراد، وحضر الشيخ حسين المذكور مع رجاله وأقاربه وتسلّمه.

وعندما رأى حسين تلحوق أن الأمراء والمشايخ شديدو الغيظ من الجزّار، خاف أن يمسّوه بأذى وهو نزيل عنده، فكتب الى الظاهر مستحصلاً منه على سلامة نزيله، فلبّى والي عكّا رغبته، وهكذا نجا الجزّار وتوجّه مع أتباعه الى عكّا. وعندما وصلها، أراد الظاهر التخلّص منه، الا أن تدخّل أحد معاونيه حال دون ذلك، إذ ذكّره بأنه ليس من شِيَم الظاهر أن يَعِدَ بالأمان وينكث بالوعد. وهكذا تراجع عن فكرة تصفيته، فأحضره اليه وأرسله الى القدس كي يكون فيها متسلّماً ونائباً عنه، على الرغم من علمه بغدره وعدم وفائه.

ومضى الجزّار مع مجموعة من رجاله لتسلّم مهمّته الجديدة، فصادف في الطريق بين يافا والرملة قطاراً يخصّ الظاهر محمّلاً ذخائر وبغالاً ومكاريّين. فسطا عليه الجزّار وأتباعه، وقتلوا المكاريّين، وساقوا البغال بعد أن حمّلوها بالذخائر وباعوها وقبضوا ثمنها وفرّوا الى استانبول.

أما الأمير يوسف فقد دخل بيروت وتسلّمها، وبدأ على الفور جمع السلاح، وعاقب الذين ساندوا الجزّار في القتال بتغريمهم مبلغاً كبيراً من المال يقارب الستماية الف قرش، ودفع ما تعهّد به لظاهر العمر وفق الاتفاق الذي عقد بينهما قبل حصار بيروت.

## ٤- فشل مشروع علي بك الكبير:

### أ- إنقلاب أبي الذهب على سيّده:

اصطدم مشروع علي بك في استعادة أمجاد المماليك الذين أسّسوا دولة قويّة حكمت البلاد الإسلامية الممتدّة من سوريا شمالاً حتى مصر جنوباً حوالي مئتين وسبعين سنة (١٢٥٠-١٥١٧)، بالأمر الواقع، إذ أفشله أحد كبار قادته المدعوّ محمد أبو الذهب. فما إن وصل بحملته التي سيرّها سيّده علي بك كما ذكرنا آنفاً الى بلاد الشام ودخل دمشق، حتى لجأ العثمانيون، كعادتهم، الى الحيلة والخداع كي يتخلّصوا منه ومن سيّده. وكانت الحيلة أن الصدر الأعظم أوعز الى عثمان باشا الاجتماع بأبي الذهب سرّاً وعرض حكم مصر عليه إن هو انقلب على سيّده. وكان عثمان باشا والياً محنّكاً، فاجتمع بأبي الذهب ليلاً وأوهمه بان الصلح بين تركيا وروسيا وشيك، وبأن السلطان العثماني سيتفرّغ بعدها لسحق المماليك وكل من يخرج على ارادته. وكانت لعثمان باشا أختام مزوّرة يقلّد بها جميع التواقيع، ففي أثناء الاجتماع، إذا بالباب يُقرع فجأة، ويدخل أحد أعوان عثمان باشا - بإيعاز مُسبق منه - وبيده الفرمان المزوّر وفيه: ان الصدر الأعظم يدعو أبا الذهب الى ترك سوريا والتراجع عنها، وإن انقلب على سيّده علي بك سيكون والياً على مصر كمكافأة له. وانطلت الحيلة على ابي الذهب، وَقَبِلَ العرض بلا تردّد، وأرسل على الفور كتاباً الى السلطان يعلن فيه ولاءه وطاعته له. ومع انبلاج الفجر، بدأ المماليك التراجع عن دمشق بعد أن تلقّوا الأوامر من أبي الذهب الذي اعتبر نفسه حليف العثمانيّين، الأمر الذي فاجأ علي بك الكبير

وكذلك حليفه ظاهر العمر. وأدرك علي بك ان المواجهة حتميّة مع مملوكه الخائن المدعوم من عثمان باشا والدولة العثمانية في آن. وما إن وصل أبو الذهب إلى مصر حتى كان علي بك في انتظاره، غير أن الحظّ حالفه فنجا من الاغتيال وفرّ هارباً الى منطقة الصعيد مع رجاله، حيث انضمّ اليه العديد ممّن شرّدهم علي بك واضطهدهم، فاستقبلهم أحسن استقبال وأكرمهم وأغدق عليهم الهبات والأموال حتى تعاظم شأنهم وأضحوا قوّة لا يُستهان بها. ولكن علي بك أرسل قوّة الى الصعيد لقتاله والقضاء عليه بقيادة اسماعيل بك أحد رفاق أبي الذهب سابقاً. ولما تقابلا، عرض محمد أبو الذهب عليه المال فاستماله وانضمّ اليه مع جماعته. وعندما علم علي بك بالخيانة الكبرى تلك، شعر بالخطر، وآثر الفرار من مصر متوجّهاً الى عكّا، التي استقبله سيّدها وعطف عليه، ووعده بتقديم المساعدات ليستعيد حكمه السليب.

## ب- نهاية علي بك الكبير:

تباحث ظاهر العمر مع نزيله علي بك في كيفيّة عودته الى حكم مصر، فتوافقا على ارسال تحريرات الى متسلّمي السناجق في مصر ليؤآزروه ضد خصمه الجحود، ذاكراً انه سيعود الى مصر على رأس قوّة لضرب مَنْ خانه. وبالفعل، فقد عرض عليه الظاهر إعداد جيش كبير وضخم، يضمّ أولاده وأقاربه وقوّات من أهل بلاد صفد والشيعة، فرفض علي بك ان يصطحب معه اكثر من ثلاثة آلاف رجل.

ودّع علي بك صديقه الظاهر، وتوجّه الى مصر بهذا العدد اليسير من الجيش، مستخفّاً بقوة خصمه وأنصاره. وكان أبو الذهب في المقابل، قد

جهّز جيشاً قوامه عشرون ألفاً من الجنود، جعلهم ثلاث كتائب، ورتّب صفوفهم. وكانت المواجهة بين الطرفين قاسية وعنيفة، سقط فيها عدد كبير من القتلى، لا سيّما من أتباع علي بك. وكان علي بك على رأس تلك القوّة ملثّماً متنكّراً، الاّ أن أبا الذهب حدّق فيه وعرفه، فاقترب منه وعاجله بضربة قوية سقط على إثرها أرضاً مضرّجاً بدمائه. ثم ما لبث عندما رآه على تلك الحال أن ترجّل عن جواده، ودنا منه ليقبّل يديه، متأثّراً لحالته، واصطحبه معه الى مصر وعالجه.فلمّا شفي من جراحه دسّ له السمّ في الطعام وقضى عليه سنة ١٧٧٣.

وهكذا تكون الدولة العثمانية قد تخلّصت من أحد كبار منافسيها، وتفرّغت لتضربْ الآخرين، بمن فيهم ظاهر العمر الذي أقلقها هو أيضاً، وشكّل خطراً عليها، فاعتبرته متمرّداً كعلي بك الكبير، وقرّرت تصفيته ليكون عبرة لكل من يحاول الخروج على إرادتها العليّة.

## ٥- سقوط ظاهر العمر:

لما هرب الجزّار بالمال الى دمشق، سعى ظاهر العمر لاقامة مفاوضات صلح مع السلطات العثمانية في دمشق. إلاّ أن المسعى باء بالفشل، وبدأ موقف الظاهر يتدهور تدريجيّاً منذ مطلع سنة ١٧٧٤ نتيجة عوامل متعدّدة، أبرزها فقدان حليفه علي بك الكبير، والثورات الجديدة التي قام بها أبناؤه الذين خرجوا على طاعته، والموقف العدائي للدولة العثمانية التي بدأت تخطّط للتخلّص منه بعد أن أصبح عامل الوقت يتّجه لصالحها منذ أن ضمنت خضوع مصر لسلطانها من خلال موالاة أبي الذهب لها، وقد اصبح ألعوبة

في يديها، فراحت تحرّضه على الظاهر كي ينقلب عليه ويطيح به كما أطاح بسيّده علي بك الكبير من قبل. ولا ننسى وشايات الجزّار التي كانت تتوالى بحقّه الى السلطنة ، ومن ثم تمنّعه عن دفع الضريبة، فكان يتباطأ في دفعها حيناً، ويلجأ الى العصيان حيناً آخر. كما أن العثمانيين لم ينسوا بعد تحالفه مع علي بك أحد أكبر خصومهم، الذي كان على وفاق تام مع امبراطورة روسيا عدوّتهم اللدودة.

بسبب كل ذلك، قرّرت السلطنة القضاء عليه، وأوعزت الى أبي الذهب القيام بالمهمّة، فلبّى هذا الأخير طلبها على الفور، واتصل بالشيخ علي بن ظاهر العمر الخارج على سلطة أبيه، واتفقا على مقاتلته، وخرج كل منهما برجاله. غير أن ابا الذهب توفّي في حزيران سنة ١٧٧٤، فعاد جيشه الى مصر، وانكفأ علي الذي راح يثير القلاقل ويحرّض سائر اخوته على أبيهم، ممّا أضعف وضع ظاهر العمر الداخلي.

وقد ازداد هذا الوضع ضعفاً وسوءاً بعد أن انتهت الدولة العثمانية من حربها مع روسيا[٦] ، وتفرّغت بعدها لقتاله، فأمرت أحد قادتها – حسن باشا – بمحاصرة مدينة عكّا برّاً، كما أمرت قائد اسطولها في البحر المتوسّط بحصارها بحراً. واشتدّ الضغط العسكري على الظاهر، وأنذره العثمانيون بالاستسلام، الا انه قرّر المجابهة وأعطى أوامره لعساكره بنصب المدافع، لكنّهم رفضوا أوامره قائلين له: "إننا مسلمون، وفي طاعة السلطان مُقِرّون". عند ذلك ادرك الظاهر خيانتهم، وحاول الفرار، فغدر به أحد جنوده وقطع

---

[٦] وذلك بموجب اتفاق وُقّع بينهما في شهر آب من سنة ١٧٧٥.

رأسه وأرسله الى الأستانة وذلك سنة ١٧٧٥. وبعد ذلك دخل القائد العثماني حسن باشا عكّا ظافراً، وتسلّمها وضبط خزائنها المالية، كما أنه قبض على بعض أبناء الظاهر وقتلهم، وفرّ الآخرون.

وهكذا يكون موت ظاهر العمر، قد خلّف فراغاً في الحكم في كلّ المناطق التي كان قد بسط سلطانه عليها، وخصوصاً في ولاية صيدا. وقد استغلّ هذا الفراغ أحمد الجزّار الذي أصبح سيّد الموقف وصاحب الكلمة الفصل حتى وفاته سنة ١٨٠٤.

# الفصل الثاني

# ولاية الجزار على صيدا



في عهد الجزّار كان المال والهدايا والرشاوى مفتاح الوصول الى الحكم

## ١- توطيد حكمه:

بعد ان انتصر حسن باشا القائد العسكري العثماني على ظاهر العمر في عكّا، سارع الى تعيين محمد باشا المقرّب منه والياً على صيدا. وفي الوقت عينه، وتحديداً في سنة ١٧٧٦، أصدر السلطان العثماني فرماناً يقضي بتعيين أحمد الجزّار والياً عليها، تقديراً لخدماته (خصوصاً عندما دخل في عداد الجيش العثماني التابع لولاية دمشق وقاتل ظاهر العمر وأبلى بلاءً حسناً في القتال). أحرج هذا التعيين موقف حسن باشا تجاه السلطان، فأضمر للجزّار الشرّ والأذيّة، ووقف منه موقف المتربّص. لكن الجزّار احتاط للأمر، واتخذ جانب الحذر من كل أعدائه، وعلى رأسهم حسن باشا، مما جرّ البلاد الى معارك وصراعات دامية على النفوذ في ولاية الشام والسناجق التابعة لها اضافة الى امارة جبل لبنان. لهذا، بدأ الجزّار الإعداد لتنظيم العساكر والجنود من المماليك المرتزقة، وبخاصة البشانقة والأرناؤوط والأكراد والمغاربة.

عاش احمد باشا الجزّار في صيدا حياة عادية لا بذخ ولا ترف فيها، عاش حياة النسّاك، وراح يزور الفقراء من وقت الى آخر ويقدّم لهم المساعدات والطعام متذكّراً أهله التعساء في البوسنة، كما كان يولي الاولاد اهتمامه ويعطيهم الحسنة، وحرّم بيع النساء في سوق النخاسة، وكذلك حرّم شرب الخمرة. وكان يلي الاحكام بشكل عادل، فخفّت الجرائم، وأحبّه الاهالي ونادوا باسمه، وكانوا يجثون على الأرض عندما يمرّ في الأسواق،

ويتضرّعون الى الله كي يقدّم له الصحة وطول العمر. وكان يعدّد خطاياه السابقة علناً ويردّد: "المال لا ينفع، والحرب شرسة ومملّة، العمل الصالح هو الوحيد الذي يفتح أبواب السماء". كان يقول هذا ودموعه تتساقط على وجنتيه، والناس تهتف بحياته. ولم يفرض في البدء أية ضريبة على الأهالي.



احمد باشا الجزّار في مجلسه يصدر الحكم على مجرم

هكذا عاشت صيدا في سلام ووئام، واستبشر الناس خيراً. ولكن الجزّار سرعان ما تبدّل، خصوصاً عندما طالبه عسكره بأجرهم عن ثلاثة أشهر خلَتْ، فأرسل ضابطَيْن الى دير القمر وطلب من الشيوخ دفع مايةوخمسين كيساً من الذهب فرفضوا، عند ذلك جمع الجنود وقال لهم: "هذا الجبل أمامكم وهو مليء بالزيتون والكرمة والتوت والأشجار المثمرة فاذهبوا

واقبضوا رواتبكم ...". هاجم الجنود البيوت وسطوا على محتوياتها، حتى انهم أقدموا على قلع الأشجار وحملوها على ظهور الجمال والبغال، كما أفرغوا أديرة الروم الكاثوليك، لا سيّما دير المخلّص الذي لا يبعد عن مدينة صيدا أكثر من خمسة عشر كيلومتراً، ولم يتركوا شيئاً إلاّ وسلبوه. وقد عمد الجزّار لاحقاً الى تحصيل المال بأية وسيلة لتمويل عساكره، كما أنه نظّم الايالات والجبايات، ولجأ بسبب حاجته للمال الى الضغط على الملتزمين في منطقته، وشدّد قبضته عليهم، لا سيّما على الأمير يوسف الشهابي حاكم الامارة اللبنانية آنذاك، بغية إضعافه، لذلك أرسل هذا الأخير التهاني والهدايا للجزّار كي يخفّف الضغط عنه. غير أن حسن باشا الذي وصل الى بيروت، طالب الأمير يوسف بالضريبة المتوجّبة على المدينة عن السنين الماضية حين كانت في عهدة الجزّار، فلم يتأخّر الأمير عن كشف الحسابات التي بيّنت ما دفعه وما يتوجّب عليه من الأموال، فقبلها حسن باشا، وبلّغه قرار الحكومة بتسليمه امارة جبل لبنان. بالاضافة الى مدينة بيروت وبلاد جبيل والبقاع، كما أبلغه أن لا سلطة لوالي صيدا عليه، سوى سلطة جمع الضرائب، ومن ثم عاد حسن باشا الى عكّا.

## أ- معركة يارون:

بدأ الجزّار يبثّ سموم الخلاف بين مختلف الأطراف اللبنانية، لا سيّما بين زعماء آل شهاب، بحيث أصبح واحدهم يناوئ الآخر. وبهذا، غدا الجزّار المرجعية الصالحة لحلّ خلافاتهم على طريقته الخاصة، فكان يعزل أميراً ويولي آخر. وهكذا كلّما ازدادت شقّة الخلافات بين الامراء اللبنانيين، تعزّز

مركزه في لبنان وازداد نفوذه.

لم يكتفِ أحمد باشا الجزّار بإخضاع الإمارة اللبنانية لمشيئته، إنما حوّل أنظاره نحو مناطق أخرى كجبل عامل وبلاد بشارة لاخضاع هذه الامصار لسلطته. وكان لجبل عامل زعيم وجيه هو الشيخ ناصيف النصار المشهود له بالشجاعة وحسن الدراية والحكمة، ولما كان الطاغية يهدف إلى اخضاع المنطقة تلك وضمّها الى ولايته، فقد أمر عساكره بمهاجمتها، ولكنّ محاولاته المتكرّرة باءت بالفشل. غير أنه عقد العزم على الا يدع المنطقة تستكين أو تعرف الراحة، واستمرّ في التخطيط للنيل منها. وما إن أطلّت سنة ١٧٨٠، حتى فاجأ الجزّار بلاد جبل عامل بجيش جرّار من الجهة الجنوبية، متظاهراً بأنه يريد المرور فيها فقط للعبور الى وادي التيم وإخضاع المتمرّدين هناك وتأديبهم. لكن الخديعة لم تنطلِ على الشيح النصار، فسارع من بلدة تبنين القريبة من مدينة صور على رأس سبعماية مقاتل لصدّ الهجوم، وحملته شجاعته وجرأته على مواجهة الجزّار ومنازلته على الرغم من عدم التكافؤ في ميزان القوى العسكرية. وقد وقعت المعركة قبل أن يجمع الشيح النصار قواته، مما سهّل للآلاف من رجال الجزّار الإنقضاض على قوات الشيخ التي مُنيت بمصرع قائلهم عندما كبا به حصانه على بلاطة يارون، فعاجله رجال الجزّار بوابل من الرصاص وأردوه، الأمر الذي تسبّب في تشتّت جنوده في كل اتجاه طلباً للنجاة، فتتبّع جنود الجزّار فلولهم، ودخلوا القرى مضرمين النار فيها بعد أن نكّلوا بالأهالي واضطهدوهم وهدموا منازلهم، واستولوا على العديد من الكتب القيّمة والمخطوطات النادرة.

رفع الأهالي ظلامتهم الى السلطان العثماني لإزالة الغبن الذي لحق بهم. ولما علم الطاغية بالشكوى تلك، تحرّى عن موقّعيها وعن الذين كانوا وراءها، فانتقم منهم بشنق بعضهم وزجّ آخرين في السجون وامانتهم عنفاً. اما الباقون ، ومن بينهم العلماء الذين نجوا من قبضة الجزّار، فقد فرّوا الى جهات أكثر أماناً كالأناضول التركي وحلب، كما أمّ البعض الآخر منطقة عكّار حيث استضافهم حاكمها علي بك الأسعد المرعبي في "دار رحبة" التي لم تزل حتى اليوم تُعرف بـ "دار العشائر". أما الذين لم يتمكّنوا من الفرار، فقد عاشوا حياة ذلّ وفقر، وعانوا شتّى أنواع العذاب والاضطهاد التي مارسها بحقّهم الجزّار حتى تولّد عندهم الحقد وعزموا على الانتقام، فثار زعماؤهم وأبناء العشائر واعتمدوا حرب العصابات.

## ب- حرب العصابات:

كان على أهالي منطقة جبل عامل الركون الى مشيئة الجزّار أو الثورة عليه، فاتخذوا قراراً بالمواجهة مهما اشتدّت المصاعب وغلت التضحيات لانقاذ ديارهم من الخراب والدمار.

تنادى كبار القوم في بلاد جبل عامل الى اجتماع عام لاتخاذ الموقف المناسب من الطاغية الذي أذلّهم، وأرهقهم بالضرائب، وألحق بهم الأذى، وتمّ الرأي على تنظيم صفوفهم، وتأليف فرقة من خيرة الرجال وأصلبهم عوداً للفتك بعمّال الجزّار وعساكره المرابطة في جبل عامل الذي احتلّوه بقوة السلاح، وأرغموا الأهالي على دفع نفقاتهم العسكرية، وتأمين علف خيولهم. وكان جيش الجزّار يتألف من فرق متعدّدة، وأجناس مختلفة، كالأرناؤوط

والدلاتيّة[٧] والاكراد، وكان على رأس كل فرقة قائد، مما تسبب بتعدّد القيادات واتجاهات القرارات.

أما الثوّار، وهم من أبناء منطقة واحدة، موحّدة الأهداف والمصير، فقد أقسموا على المواجهة للتخلّص من هذا الطاغية الذي ابتلوا به، وحلّ غضبه عليهم فأذلّهم.

بدأ الثوّار يتحرّكون في كل الاتجاهات، بتوجيه قائدهم الشيخ حمزة النصار، ومدير شؤونهم علي الزين، يتعقّبون عساكر الجزّار وينصبون الكمائن لهم، فأهلكوا العديد منهم. كما أنهم هاجموا حاكم البلاد العام، الذي كان قد اتخذ من بلدة تبنين مقرّاً له، وقبضوا عليه وذبحوه، ونهبوا الخزينة الأميريّة. غير أن الجزّار سارع الى اخماد الثورة بإرسال تعزيزات عسكرية تتعقّب الثوار وتداهمهم في داخل قريتهم شحور. وإثر ذلك، نشبت معركة بين الفريقين، أسفرت عن مقتل قائد الثورة الشيخ حمزة النصار وهرب أعوانه، كما فرّ الشيخ علي الزين الى العراق.

وهكذا تشتّت الثوّار بعد أن أخمد الجزّار ثورتهم، وبسط نفوذه وسطوته على كامل جبل عامل الذي بقي في حالة غليان، ولم يهدأ - بالرغم من البؤس الذي لحق به - الاّ بعد تدخل الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير، الذي فاوض زعماء الثورة، بإيعاز من والي دمشق سليمان باشا، وتمّ التوصّل الى ضمان أمن أبناء جبل عامل وسلامتهم ورفع الظلامة عنهم.

---

[٧] الدلاتية: جنود من أجناس مختلفة، وسُمّيوا بهذا الإسم لطيشهم وحماقتهم.

## ٢- استلام عكّا:

. في سنة ١٧٧٩ عزم أحمد باشا الجزّار على الإنتقال الى مدينة عكّا والإقامة فيها نظراً لموقعها الستراتيجي. ولما علم سكان المدينة بموعد قدومه، خرجوا من منازلهم في الصباح الباكر استعداداً لاستقباله. وعندما دوّى المدفع يُنبئ عن وصول الجزّار، فُتحت أبواب المدينة على مصراعيها، ودخل الموكب المؤلّف من أربعماية جمل محمّلة بالحرير ومايتي بغل تحمل أمتعة الجيش وخمسة وسبعين مغربياً يرفعون البيارق، ثم الفرقة الموسيقية الصاخبة، فالقائد، ويتبعه الجنود المتعدّدو الجنسيّات والأعراق: ألبان، يوغوسلافيون، مراكشيون، وعرب الصحراء مع أحصنتهم، والمغاربة الجزائريون، وثلاثماية حبشي، وبحوزتهم أربعماية مدفع كل منها يجرّه بغلان، وتسعة أحصنة محمّلة بالذهب، ثم المنجّمون (الذين يصحبهم معه أينما حلّ) يصيحون بأعلى أصواتهم:"النصر للباشا". وإذا بسكوت تام يُخيّم على الموكب، ويصل الباشا على صهوة جواده بأبّهة وعظمة، فخرّ الناس ساجدين، ومن ثم رفعوا رؤوسهم وصاحوا "الله أكبر". وكان الجزّار رافعاً يديه يحيّي الناس، محاطاً بمئة مملوك (حرسه الخاص)، وبمايتي عبد كل واحد منهم يحمل فرّاعته وخنجره، وهو رهن إشارة سيّده.

كان دخول الباشا مدينة عكّا عرضاً عسكرياً أرهب أعداءه وأفرح العاديّين المسالمين. وما إن حلّ فيها حتى بدأ بتسخير أبنائها لترميم حصونها وأسوارها مناوبة لمدة ثلاثة أيام من كل أسبوع حتى الإنتهاء من التحصينات، لتصبح عكّا قلعة عسكرية منيعة يصعب اسقاطها. كما اهتمّ بتصنيع سفن

حربية لحماية شواطئ المدينة من الغزوات، كذلك أعدّ كتيبة مشاة قوامها ألف رجل من المغاربة، وفرقة من الخيّالة جاوز عددها ثمانماية رجل من بلاد البوسنة وألبانيا (وهم غرباء عن منطقة الشرق الأوسط). كما أنه احتكر تجارة البلاد التي عادت عليه بمردود كبير، مكّنه من دفع النفقات العسكرية ليدعم سلطته التي بدأت تكبر وتتعاظم، حتى مدّ نفوذه على الساحلين اللبناني والفلسطيني وصولاً الى ولاية دمشق بعد أن حصل على فرمان الخلعة ليكون والياً عليها سنة ١٧٧٩.

### أ- الصراع بين الجزّار ومماليكه:

عندما توفّي السلطان العثماني عبد الحميد الأوّل سنة ١٧٨٩ بعد حكم دام ست عشرة سنة، خلفه السلطان سليم الوريث الشرعي للدولة العثمانية. وفي السنة عينها، توجّه الأمير علي الشهابي بن اسماعيل أمير حاصبيا الى عكّا، فاستقبله سيّدها، الأمر الذي أزعج الأمير يوسف الشهابي وجعله يتحسّب لما قد يُحاك ضدّه، لأنه كان يُدرك خبث الجزّار وخداعه وازدواجية رأيه، فندم كلّ الندم على امتناعه عن دفع المال للجزّار والخروج عن طاعته. استغلّ سيّد عكّا الأمر، وعمل على تأديب الأمير يوسف بتسيير حملة عسكرية لإخضاعه وإدخاله مجدّداً بيت الطاعة.

عندما انطلقت الحملة من عكّا، جرت محاولة انقلابية على الجزّار، تزعّمها بعض مماليكه المنافسين له للإطاحة به، وعلى رأسهم "السرضار" (السردار)، فما كان منه إلاّ أن جمع قوّاته الخاصة، وأفرادها بشانقة الأصل يناهز عددهم الثلاثين ، فانقضّوا على جماعة الإنقلابيين وقطعوا رأس

"السرضار" وغيره من المخطّطين، وأودعوا المشبوهين الآخرين السجون حتى غصّت بهم.

ولما رأى سائر المماليك ما حلّ برفاقهم من قتل وتنكيل وسجن، وأدركوا أن الجزّار مصمّم على انهائهم، أقسموا جميعاً على المقاومة حتى الشهادة، وكان عددهم لا يتجاوز السبعين عنصراً، فباغتهم الجزّار مع مجموعة من رجاله، ورشقوهم بالنيران، فكانت معركة مصيريّة شارك فيها الجزّار بنفسه. وفيما القتال على أشدّه، سارع "الخزندار" شقيق سليم باشا[٨] ففتح السجون وأخرج المماليك الأسرى، الذين توجّهوا بأقصى سرعة الى مخازن السلاح، ونصبوا المدافع، ودكّوا السرايا بالقذائف، فاهتزّت المنطقة من أقصاها الى أقصاها، وهرع الناس الى أماكن أكثر أماناً، وأقفلت الأسواق والمحال التجارية. وكان ذاك اليوم رهيباً ومرعباً في مدينة عكّا. وعندما عجز الجزّار عن حسم المعركة بسرعة، تدخّل مفتي المدينة فاجتمع بالجزّار واقترح عليه حلاً يقضي باخراج المماليك من المدينة وإطلاق سبيلهم. رفض الجزّار الإقتراح أوّلاً، لكنّه عندما أيقن انه لن يتمكّن من الانتصار، عاد فوافق عليه. فأسرج المماليك خيولهم، وحزموا أمتعتهم، وغادروا عكّا، ولم يبقَ منهم سوى الأولاد الصغار، فأمر الجزّار (انتقاماً من ذويهم وأقاربهم) بقطع آذانهم وجدع أنوفهم ونفيهم الى مصر.

---

[٨] سليم باشا هو أحد كبار قادة عساكر الجزّار.

ب- الصراع بين الجزّار وكبار قادته العسكريّين (سليم باشا الصغير وسليمان باشا):

سليم وسليمان مملوكان اشتراهما والي مصر مراد باشا وأهداهما للجزّار. سليم وُلد في حماه وكان المملوك المفضّل لدى الجزّار، تدرّج في المناصب العسكرية حتى اصبح من كبار القادة، فأرسله الجزّار الى جبل لبنان لإخضاع الأمير يوسف. في أثناء ذلك قامت حركة التمرّد على الجزّار، فبقي سليم في لبنان وراح يراقب الوضع في عكّا عن كثب، ولما انتهت العملية بالاتفاق المذكور آنفاً، توجّه المماليك الى سليم باشا وطلبوا وساطته، عندها كتب الى الجزّار يستعطفه كي يعيدهم الى خدمته، لكن الجزّار رفض بشدّة. إلاّ ان سليم كرّر المحاولة مقترحاً عليه أن يعلنوا التوبة والطاعة، ولكن الجزّار بقي على موقفه الرافض وردّ عليه بكلامٍ نابٍ وأمره بطردهم.

استاء سليم لتمنّع الجزّار الذي عدّه استخفافاً به، فتعاهد مع زميله سليمان باشا على مقاتلة الجزّار، وسعى من جهة اخرى الى عقد مصالحة بينه وبين الأمير يوسف، واتفقا أيضاً على مقارعة الجزّار. ثم اتصل بـ "الجبّوري" متسلّم مدينة بيروت، وأحد أبرز قادة عساكر المغاربة، وأخبره بما صمّموا عليه، واتفق معه أيضاً على كسر شوكة الجزّار بغية التخلّص منه.

وبعد أن تمّ التفاهم بين الفرقاء، حُشِدَت العساكر المتحالفة في صيدا، وزحف الجنود نحو صور، فاستولوا عليها بعد حصار يسير، ونهبوها وسبوا[٩] نساءها، ومن ثم أكملوا زحفهم على طول الطريق الساحلي حتى وصلوا الى

---

[٩] سبوا= أسروا.

مدينة عكّا. فوجئ الجزّار بهذه الحشـود، فـدقّ النفـير على الفـور، ولم يُلبِّ النداء سوى قلّة من جند الأرناؤوط، لأن الجميع أصبحوا ضدّه، وهرع أهـالي عكّا الى لقاء سليم باشا آملين الخلاص من الجـزّار وجـوره، كمـا ان مشـايخ البلاد وأعيان المقاطعات قدّموا له مساعدات عسـكرية ومؤنـاً وغيرهـا. لكـن الجزّار، بما عُرِف عنه مـن دهـاء، لم ييأس، فقـرّر الإنتقـام والمواجهـة، وأمـر العمّال والبنّائين في الورش بالحضور الى دارته، ووزّع عليهم السلاح، وأغدق عليهم الأموال، واعداً اياهم بالمزيد إن ظفروا في المعركـة ضـدّ خصمـه سليم باشا وحلفائه.

وشعوراً منه بحراجة الموقف، وبأن مصيره بات على المحكّ هـذه المرّة، وأن ميزان القوى ليس في صالحه، تحسّب للأمر، فحضّر على الفـور المراكـب في الميناء حتى إذا كانت النتيجة على غير ما يتمنّى أسرع توّاً الى السفن كـي يفوز بالنجاة.

اعتمد سليم في محاصرة عكّا على خيانـة مـا تبقّـى مـن جنـود الجـزّار، واعتقد بأنّ النصر مسألة ساعات، لأن المدينة ستفقد الطعام والمـؤن، والجـزّار سيقتل نفسه أو أنّ أحد مماليكه سيتولى المهمّة ويأتي برأسه.

كان الجزّار وعساكره قد أعدّوا خططاً لجأوا الى إحداها ونجحوا بهـا، ومفادها أنه مـع حلـول المسـاء خـرج مـن غرفتـه وقـد ارتـدى ثيابـه المطـرّزة بالذهب واستلّ سيفه المزيّن بالجواهر، وفرّاعته الكبيرة على جنبه، ومن حولـه قلّة من المغاربة الذين بقوا معه – ولم يتعدَّ عددهم الثلاثماية – حاملين البنـادق والخناجر ومعهم مدفعان يجرّهما بغلان. في ذلـك الليـل الهجير الكـالح الـذي

احتجب قمره وراء الغيوم، امتطى الجزّار حصانه، وتبعه جنوده الى أبواب المدينة، وأعطى أوامره للمغاربة ليتربّصوا بسليم المرابط هناك.

أما هو، فقد صعد الى تلة صغيرة مشرفة على المدينة، ومنها انقضّ على جيش سليم، بينما هاجم المغاربة معسكره وقطعوا رباط الخيم التي أطبقت على الجنود الهاجعين، فسجنتهم داخلها، وأفلتوا عليهم الجمال والبغال التي داستهم بأقدامها. ثم انقضّوا على الخصوم الآخرين، والتحموا في معركة حامية، أظهر فيها جنود الجزّار براعة قتالية عالية، علماً أنهم لا يدافعون عن قضية ، إنما كان حافزهم الأكبر للقتال المال الذي وُعدوا به. أمطر جنود الجزّار أنصار سليم بوابلٍ من الرصاص، وشلّوا قدراتهم القتالية، ونشروا الفوضى بين صفوفهم وشتّتوهم، ولحقوا بفلولهم، وقضوا على العديد منهم. غير أن سليم المهزوم تمكّن من الفرار الى دمشق ومنها الى استانبول، اما سليمان فاتجه نحو دير القمر.

وبعد هذه المعركة التي حسمها الجزّار لصالحه، أصبح كالجواد الجموح الذي لم يعد يستطيع أحد الوقوف بوجهه، وزاد من حدّته شعوره ان العالم بأسره ضدّه، فتخطّى الشرائع والنواميس، وراح يأمر جنوده الجدد الذين استبدل بهم مماليكه "الخونة" بالقاء القبض على الناس الأبرياء بتهمة التعامل مع سليم باشا.

وذات يوم، وفيما الجزّار في ديوانه يقاضي شخصين قد شكا واحدهما الآخر، وكان الديوان مكتظّاً بالناس والعبيد، فُتح الباب فجأة على مصراعيه، وإذا برجلٍ غريب يدخل القاعة مرتدياً عباءة من جلد جمل، ملثّماً بكوفية من

الحرير، ويمثل أمام الجزّار من غير أن يتفوّه بكلمة. حدّق الجزّار به مليّاً وقال: من أنت؟ فأجابه على الفور :"أبي، أنا عبدك سليمان، لم أقدر أن أعيش بعيداً عنك، وإني أريد أن أموت بين يديك". ثم نزع الكوفية عن وجهه، فأسرع الجزّار ورفع فرّاعته ثلاثاً و لم يقطع رأسه، ثم رمى الفرّاعة وقال: "الجزّار في حياته غفر مرّة واحدة، إجلس بجنبي فانت ابني".

## ج- انتقامه من الحريم والسكّان والأعيان:

ما إن اقترب موسم الحجّ حتى أعدّ الجزّار العدّة للتوجّه الى مكّة المكرّمة لأداء فريضة الحجّ، وقد عهد بإدارة المدينة موقّتاً الى مملوكه سليمان الذي كان قد عفا عنه. إلاّ أن سليمان استسهل خيانة سيّده ثانية، فأقدم على خلع باب جناح حريم الجزّار بعد أن قتل حرّاسه ودخله، وأمضى فيه ثمانية أيام بينهنّ، وبخاصة مع امرأة جركسيّة رائعة الجمال كانت المفضّلة لدى الجزّار. ولما اقترب موعد عودة الباشا، أعدّ سليمان العدّة، وسرج خيله، وحمل سلاحه وماله وكل ما طالت يده، وولّى هارباً هذه المرّة دون رجعة.

انتشر الخبر في انحاء المدينة كافة، فتوجّس الناس شرّاً ولزموا منازلهم. ولما عاد الجزّار، كان يتوقّع استقبالاً لا يقلّ أبّهة وعظمة عن الاستقبال السابق الذي لقيه من الأهالي عند تسلّمه ولاية عكّا، ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل. فأوقف حرسه ودخل الى المدينة وحده، فوجدها مقفرة والمنازل مغلقة، وكذلك الدساكر والمحال التجارية، فاحتار واستغرب! الطرقات خالية إلاّ من الكلاب. فمرّ أمام دور العبادة: الجوامع، الكنائس،

والكُنُس[١٠] ، فلم يجد أحداً، ثم دخل السرايا وقصد دار الحريم فرأى آثار الفزّاعة على الباب، فعرف كل شيء. على الفور أمر حرّاسه بإحضار أكياس كبيرة من الجلد، وحيّات سامّة وهررة، ووضع في كل كيس هرّة وحيّة وامرأة من حريمه، ثم أمر برميهنّ في عرض البحر وكان عددهنّ ستاً وثلاثين امرأة. أما الشركسية، فأمرها بأن تتعرّى، وقطع ثدييها بسيفه، ثم بقر بطنها بخنجره، وأخرج أحشاءها ورمى بها على الجدران. ومنذ تلك الحادثة، تحوّل الجزّار الى وحشٍ ضارٍ، غايته الانتقام من جميع الناس، لا سيّما ممّن خانوه، وخصوصاً مملوكه سليمان الخائن الأكبر. فأمر غلمانه بأن يلقوا القبض على عمّاله وكتّابه، وعلى العديد من أهالي عكّا، ويحضروهم اليه. فكان له ما أراد، وألقي القبض على أكثر من مئتي شخص أرسلهم جميعاً الى السجون، كما ألقى القبض على أعيان المدينة وسجنهم. ثم أمر بإحضار العديد من الناس وكشف عن رؤوسهم، فمن وجد على رأسه سمة العبودية (نيشاناً) كان يرسله الى السجن، كذلك ألقى القبض على معظم الصنّاع وأرباب الحِرَفْ وغيرهم حتى غصّت السجون بالناس الذين ضاقوا ذرعاً بهذا الجور والإضطهاد.

بعد ذلك ، امر الجزّار بإخراج السجناء كافة الى خارج المدينة والإجهاز عليهم. وكانت المجزرة رهيبة، ذهب ضحيتها المئات من الناس، بحيث اختلط فيها عويل الأمّهات بصراخ الأطفال وتأوّهات الأرامل ، وترك القتلى على الأرض خارج المدينة فريسة للضواري والكواسر.

---

[١٠] الكُنُسْ: جمع كنيس – معبد اليهود.

وفي المساء، أمر الجزّار ذوي الموتى بدفن قتلاهم، مشترطاً عليهم ألاّ يحدثوا نحيباً أو عويلاً، والاّ لاقوا المصير عينه. فانصاعوا جميعاً مذعورين يكبتون حسراتهم ويدارون دموعهم.

## د- مأساة موظّفي المالية والإدارة:

كان الجزّار قد استقدم من الإمارة اللبنانية بعضاً ممّن يحسن الإدارة المالية لاستخدامهم، امثال ابراهيم أبي قالوش، ومخايل وبطرس السكروج، وابراهيم الصبّاغ وأخوته الذين تمكّنوا من الفرار الى لبنان اثر موت ابيهم، وتوجّهوا خفية الى منطقة كسروان التي لم تكن خاضعة لإمارة الشوف. وهناك مكثوا فترة طويلة أصابهم خلالها العوز والفاقة. فلم يكن من حبيب الصبّاغ إلاّ أن توجّه الى عكّا لمقابلة سيّدها بعد أن نال عفوه، فاستخدمه الجزّار وكلّفه حسابات خزانته لأنه كان متفوّقاً في علم الحساب وادارة الشؤون المالية وضبطها. لكن حسد آل السكروج أقلق راحته، فتكاثرت وشاياتهم عليه الى الجزّار، مستخدمين التزلّف والكذب للتخلّص منه، متّهمين إيّاه بسرقة الأموال، حتى قبض عليه الجزّار وزجّه في السجن، وبقي فيه حتى قضى نحبه.

عند ذلك سلّم باشا عكّا مخايل السكروج وأخاه بطرس ضبط المالية، لكن هذين الأخوين لم ينعما طويلاً بوظيفتهما الجديدة، لأن الجزّار - عندما ثارت ثائرته على معظم عمّاله وكتّابه ومستخدميه - لم يترك الشقيقين بمنأى عن غضبه، فأودعهما السجن وأذاقهما مرّ العذاب، ونهب أموالهما، كذلك قبض على العديد من الكتبة ومأموري القرى.

بعد أن قبض على أولاد السكروج، سعى كلّ من المعلّمين ابراهيم أبو قالوش ويوسف مارون، الملتزمين بعض مقاطعات الجزّار، أن يتولى المهمّة لنفسه بديلاً من السكروج، لهذا تخاصما وناصب واحدهما الآخر العداء، حتى ان يوسف مارون، بعد أن ولاّه الجزّار خزانة المقاطعات، سعى الى التخلّص من منافسه ابراهيم فراح يوغر صدر سيّده عليه حتى أودعه السجن، غير أنّه ما لبث ان أطلق سراحه بعد حين. ولم يهنأ للمعلّم يوسف مارون بال بعد اطلاق سراح غريمه، فكثّف وشاياته، حتى عيل صبر الجزّار، فأودع ابراهيم السجن من جديد، وصادر أمواله وممتلكاته قبل أن يودي بحياته.

بعد وفاة ابراهيم، تسلّم الياس إدّه مهمّة شؤون الخزينة وضبط أموالها، وكان شديد الإطلاع على ألاعيب الجزّار، فَحَذِرَ غدره متّعظاً بما جرى لسلفه في خدمة هذا البشناقي الظالم. وفي سنة ١٧٨٨، لما كفّت الدولة العليّة يد الجزّار عن ولاية دمشق وحصرت سلطته على مدينة عكّا، استأذنه الياس إدّه - بعد أن أقام في خدمته مدة طويلة - بالتوجّه الى مدينة بيروت ليأتي بعائلته، فأذن له الجزّار. وما كاد يصل الى بيروت، حتى ولّى هارباً مع عائلته الى جبل لبنان، وهناك أصبح في مأمن، لأن الذين يلوذون بهذا الجبل لا يستطيع الولاة، مهما علا شأنهم، أن ينالوا منهم أو أن يُلحقوا بهم الأذى إلاّ باذن أمير الجبل ورضاه. ولما وصل الى دير القمر ، استقبله الأمير يوسف على السعة. بعد فرار الياس إدّه، سلم الجزّار مهمّته الى يوسف القرداحي الذي كان موظّفاً عنده في ميادين شتّى، لا سيّما في ضبط مالية الخزينة. غير أن الخوف من غدر الجزّار كان ينتابه شأنه شأن سائر الموظّفين والمواطنين ، فراح يتحيّن الفرص هو ايضاً للفرار، حتى سنحت له الفرصة وهرب مع عائلته الى

اوروبا.

كانت علاقة الجزّار بموظّفيه سيفاً مسلّطاً على رؤوسهم، فعاشوا في قلق وحيرة دائمين، لم يأمنوا مرّة جانبه. فما من موظّف كان يستمرّ في وظيفته، إذ ما يكاد يخدم فترة حتى يلوذ بالفرار من خدمته، لأن العمل عنده مضنٍ وشاقّ، والتعامل معه من المستحيلات.

## هـ – طرد القناصل الأجانب:

كان للجزّار ذكاؤه الفريد وتحليله الخاص للأمور ونظرته الشخصية الى العالم. فبالنسبة اليه، ليس ثمّة من عمل صالح أو طالح. كان يكره جميع المبتكرات الغربيّة في طريقة الحكم، فهو يحكم على طريقة الملوك في العصور القديمة أو الوسطى، شأنه شأن داود الذي كان يحكم عصابة لصوص وأصبح ملك القدس ومجّده الأدب العبراني وخلّد ذكره. فالحكم في القدس في زمن داود الملك كان مثل حكم الجزّار في عكّا، فالتعدّيات والقتل هما الخبز اليومي للشعب، ليس هناك أي نوع من العدل أو العدالة الاجتماعية.

هذا الجو المأسوي والمحموم عاناه جميع الرعايا، مواطنين وأجانب. فالجالية الفرنسية التي استحصلت على فرمان يعفيها من دفع الجزية، لم يتجرّأ أيّ من أبنائها إطلاع الجزّار على هذا الفرمان. ولمّا تأخّر الفرنسيون عن دفع الضريبة أنذرهم الجزّار، ممّا دفع بسفيري فرنسا المقيمين، أحدهما في عكّا والآخر في صيدا، الى تقديم شكوى عاجلة للسلطان بعد أن زوّداه هدايا ثمينة وطالبا بخلع الجزّار، ووصفاه له بأنه: "شخص مجنون وعاقل، وحش ووديّ، جبان وشجاع، ولم نفهم منه شيئاً".

أرسل الباب العالي موفداً يحمل الفرمان بتنفيذ عزل الجزّار، الا أن هذا الأخير علم بذلك، فارسل أحد مماليكه وقتل الموفد قبل أن يصل اليه، وأرسل ببعض أكياس الذهب الى السلطان العثماني قصد ارضائه ليتراجع عن قرار عزله. وبعدها أبلغ الجزّار الى القنصلين أن يغادرا مدينتي صيدا وعكّا مع رعاياهما لأنهما غير مرغوب فيهما ضمن سلطته، وأنذرهما باقفال الخانات التابعة لهما بسبب موقفهما المعادي له. قصد القنصلان السلطان عارضين أمرهما عليه، فأصدر أوامره بعودتهما الى مركز عملهما. لكن الجزّار رفض القرار، مبيّناً للسلطان الأسباب والدوافع التي تحول دون عودة القنصلين. وفي اثناء ذلك تمّ تعيين قنصلين جديدين من قبل الحكومة الفرنسية.

وهنا يبدو لنا كم كانت مكانة الجزّار عظيمة لدى السلطات العثمانية بحيث لم تكن ترفض له طلباً، لأنه كان يحقق رغبتها العليّة بدون تردّد.

## (٢) وضع الامارة اللبنانية في عهد الجزّار

### I – في عهد الأمير يوسف الشهابي:

### ١– الإنتقام من الأمير يوسف:

في سنة ١٧٧١، اختار أعيان جبل لبنان الأمير يوسف الشهابي في الباروك خلفاً لعمّه الأمير منصور الشهابي الذي اعتزل الحكم. وعلى الرغم من نعومة أظفاره وحداثة سنّه، استطاع ان يتولّى شؤون البلاد بدعم من والي الشام، وباعتماده على مستشاره الخاص الشيخ سعد الخوري لحسن درايته وحكمه، وقد عامل الناس باللين والحسنى فالتفّوا حوله ودعموه. إلاّ ان الولاة العثمانيين، وفي طليعتهم أحمد باشا الجزّار، لم يدعوا الإمارة تنعم بالسلام والإستقرار. فالجزّار الذي كان سياسياً حذقاً بقدر ما كان طاغية، عمل على اثارة الحزازات بين الأسر اللبنانية، خصوصاً بين الشهابيين، فاستغلّ تناحرهم وتنافسهم على السلطة، وراح يناصر فريقاً على آخر.وكان يكنّ العداء للأمير يوسف لأنه تحالف مع الشيخ ظاهر العمر والدولة الروسية وأرغموه على مغادرة بيروت. ولما أصبح الجزّار والياً على صيدا، أصبحت امارة جبل لبنان خاضعة لسلطانه، فوجد الفرصة سانحة للإنتقام من الأمير يوسف. وكان أوّل الغيث مطالبته بدفع الضريبة عن بيروت لثلاث سنوات خلت، واستنفر ستماية خيال من خيرة جنوده لإرغامه على تأدية الضريبة تلك.

### أ- معركة السعديّات:

لما علم الأمير يوسف بتحرّكات الجزّار وإعداد الفرق العسكرية لضربه، طلب من حلفائه، وخصوصاً من آل نكد، أن يوآزروه في مواجهة الخصوم، فجهّز ما يقارب مائتي شاب ورابطوا على الطريق المؤدّية الى منطقة السعديّات جنوب بلدة الدامور. وفي الصباح، التحم الفريقان في معركة غير متكافئة، انتصر فيها جند الجزّار بعد أن انقضّوا على النكديّين ونكّلوا بهم وأعملوا السيف في رقابهم، وشتّتوا شملهم، ثم عادوا أدراجهم الى صيدا ظافرين.

### ب- محاولة عزل الجزّار:

إثر ذلك، رفع الأمير يوسف شكوى الى حسن باشا[11] يعرض مظالم الجزّار بحقّه وحقّ أهالي الجبل الذين أنزل بهم شتّى أنواع الاضطهاد والتعذيب، اضافة الى التنكيل والقتل والسلب والسجن، "لا لشيء، الاّ لأننا أرسلنا الأموال الاميرية الى سعادتكم".

وكان حسن باشا يكنّ العداء والكره للجزّار، خصوصاً لأنه عُيِّن والياً على صيدا من دون موافقته، وكان يترقّب الفرصة المناسبة للإيقاع به والتخلّص منه، فلما اطّلع على مضمون الشكوى وعلى ما تنطوي عليه من مظالم الجزّار، قَدِمَ الى صيدا لتأديبه والانتقام منه. وما إن وصل الى المدينة، حتى خفّ الجزّار لاستقباله، وتقدّم منه محاولاً تقبيل يديه، متظاهراً بالطاعة

---

[11] حسن باشا: أحد كبار قادة الدولة العثمانية، دخل عكّا ودحر ظاهر العمر.

والإحترام. إلاّ ان حسن باشا نَفَرَ منه، وسحب خنجره وجرحه في وجهه، ومع ذلك تمكّن الجزّار من المحافظة على رباطة جأشه، مقدّماً اعتذاره، مبرّراً موقفه بتوضيح مسهب عن موقف الأمير يوسف العدائي الذي تعمّد إرسال رجاله الى السعديّات لمقاتلة عساكره. لكن حسن باشا لم يصدّقه، متوعّداً إياه بعزله بعد أن يتوجّه الى استانبول للحصول على فرمان بذلك. إلاّ أن الدولة العثمانية لم تأخذ برأي حسن باشا، نظراً لحاجتها الى الجزّار الذي كان ممسكاً بزمام أمور ولايته.

### ج- محاولة الأمير يوسف اغتيال الجزّار:

خاب أمل حسن باشا في عزل الجزّار عن ولاية صيدا، وتبخّر حلم الأمير يوسف في التخلّص من الطاغية، فوجد ان السبيل الأسلم هو التكيّف مع هذا الواقع وإن كان مريراً. وكانت بوادر هذا الإقتناع اتفاقه مع الجزّار على الإفراج عن الأسرى النكديّين الذين وقعوا في الأسر خلال معركة السعديّات، خصوصاً وأنّ اهاليهم كانوا يلحّون باستمرار على اميرهم لإنقاذهم. ولهذا، عرض الأمير يوسف على الجزّار فدية مالية مقابل اطلاق سراح الأسرى من قلعة صيدا. ولتنفيذ هذا التعهّد، إنطلقت فرقة عسكرية من عساكر الجزّار الى الجبل بقيادة مصطفى آغا لتحصيل المبلغ، ولكن الأمير يوسف، الذي تخوّف من غدر الجزّار، طلب من قائد الفرقة أن يصرف الجنود ويبقى هو الى حين استلامه الفدية.

ولّما امر الأمير يوسف بجباية الضرائب، توجّه الجباة الى المناطق كلّها للتحصيل . ولكن أمراء ابي اللمع تمنّعوا عن الدفع ، فكان عقابهم مصادرة

أرزاقهم وممتلكاتهم في بيروت، كما أمر الجزّار في سنة ١٧٧٧ عساكره بالتوجّه الى البقاع للإستيلاء على غلالهم هناك وإحراق بيادرهم.

ولكن قبل أن يتوجّه مصطفى آغا الى البقاع لتنفيذ أمر الجزّار، تمّ لقاء سرّي بينه وبين الأمير يوسف، توافقا فيه على اغتيال الجزّار. غير أن عيون الجزّار المبثوثة في كلّ بقعة من مناطق نفوذه حالت دون النيل منه. فتمكّن، بفضل معاونيه، من كشف المؤآمرة، وعاقب الآغا الخائن بطرده من عسكره، كما توعّد الأمير يوسف وراح يدبّر له المكائد.

## د- عزل الأمير يوسف عن الإمارة:

إن العلاقات الودّية التي ربطت بين الأمير يوسف ومشايخ آل نكد لم تستمرّ طويلاً، لأن هؤلاء كانوا قد دفعوا للأمير مبلغاً كبيراً من المال مقابل إطلاق سراح اولادهم من قلعة صيدا، لكن الأمير يوسف لم يفِ بوعده، ولم يفرج الجزّار عن أبنائهم، فاتفقوا مع أخوي الأمير يوسف الأميرين سيّد أحمد وأفندي لشدّ أزرهما ضدّه، والعمل على عزله وتولّيهما الحكم مكانه.

وراودت هذه الفكرة الجنبلاطيّين أيضاً فتبنّوها، وشكّلوا حلفاً قوياً ضدّ الأمير يوسف، بالإضافة الى أُسر أخرى من اللبنانيين التي ناصبته العداء نتيجة إرهاقهم بالضرائب لتلبية جشع الجزّار.

ولما اصبح الأمير يوسف على بيّنة من هذه المواقف، اتخذ جانب الحيطة والحذر، وآثر النزوح الى غزير تلافياً للمواجهة والإحراج.

بعد رحيله تنفّس اللبنانيون الصعداء، وشكوا أمرهم الى الجزّار بسبب

ثقل الضرائب التي كان يفرضها عليهم وسوء تصرّفه مع غالبية السكان، وطلبوا منه تولية الأميرين سيّد أحمد وأفندي، وأغرياه بالمال ووعداه بالمزيد. فتجاوب الجزّار مع رغبتهم، خصوصاً وأن خلعة الإمارة كانت في عهده تُباع بالمزاد العلني، ولذلك كان على الأمير أن يدفع الثمن الذي يقترحه الجزّار.

إذاً، كان للخلعة ثمن باهظ يقبضه الجزّار في كل مناسبة مِن كلّ مَنْ يرسو عليه المزاد، وهكذا قبض خمسين ألف قرش مقابل خلع الأمير يوسف وتسليم الأميرين سيّد أحمد وأفندي الإمارة.

**هـ - انتقام الجزّار من النكديّين:**

وفي أثناء ذلك، تمكّن أبناء مشايخ النكديّين من الفرار من سجن قلعة صيدا، وذلك بمعاونة أحد الفلاّحين الذي كان يتردّد عليهم من وقت الى آخر، فتمكّن من فكّ قيودهم، وأنزلهم من كوّة في القلعة الى البحر، ولاذوا بالهرب. لما علم الجزّار بهروبهم، أمر العساكر بالتوجّه الى جبل لبنان لينتقم من النكديّين، فاعترضها الشيخ كليب نكد ورجاله، وجرت معركة بين الطرفين استمرّت حتى المغيب، أسفرت عن العديد من الضحايا والجرحى في الجانبين. وبعد ثلاثة أيام من تلك المعركة، يمّمت عساكر الجزّار ناحية إقليم الخرّوب، فاصطدمت بالنكديّين في قرية البرجين، وانجلى الصدام عن مقتل العديد من النكديين وتشتّتهم. ولم يجد زعماؤهم بدّاً من تزويد الأميرين سيّد أحمد وأفندي بمبلغ من المال ليدفعاه للجزّار كي ينالوا عفوه. قابل الأميران الباشا في صيدا، وتمكّنا من اقناعه بالكفّ عن ملاحقة النكديّين، كما أمدّاه بأموالهما وتمكّنا من تجديد ولايتهما ست سنوات اخرى.

## ٢- عودة الأمير يوسف الى الإمارة:

طال غياب الأمير يوسف عن الإمارة اللبنانية، وراح يراسل أعيان البلاد من مقرّه في غزير، محاولاً استمالتهم الى جانبه، علّه يستعيد قوّته ويكسر شوكة أخويه، ويتمكّن من استرداد سلطته المسلوبة. ولم ينسَ بالطبع إرضاء الجزّار بالمال، لأنه كان يعلم ان المال هو الركيزة الأساسية للحصول على الإمارة.

لكنّ أخويه كانا له بالمرصاد ويعملان للحؤول دون عودته ، فراحا يوغران صدر الجزّار عليه ويحذّرانه من مغبة عودته، لأنه إذا قُيِّضت له العودة الى الإمارة فسيعرّضها لمتاهات لا تُحمد عقباها، كما سيعطّل بالتالي ضبط جباية الأموال الأميرية. ونجحا في وشايتهما، فأرسل الجزّار عساكره الى غزير، لا لتأديب الأمير يوسف فحسب، وإنّما لطرده من المنطقة كلّها. ولذلك، أبحر بنفسه من صيدا الى بيروت، حيث قابله الأمير سيّد أحمد وطلب منه فرقة من عسكره توجّه بها الى غزير وحاصرها أيّاماً. ولما شعر الأمير يوسف بشدّة الوطأة عليه، ترك غزير وهرب الى بسكنتا، ومن هناك أوفد الى الجزّار - وكان قد انتقل الى صيدا - رسولاً يُدعى أسعد بك طوقان يعرض عليه ماية ألف قرش مقابل خلعة الحكم. وكان من الطبيعي أن يؤثّر هذا العرض المغري في قرار الجزّار، فأرسل الخلعة فوراً للأمير يوسف الذي توجّه الى بعقلين ومعه أمر من الباشا برفع الحصار عن غزير.

## ٣- صراع الأخوة على الإمارة:

### أ- مقتل الأمير أفندي:

بلغ الصراع ذروته بين الاخوة، وكان عام ١٧٨١ هو عام الحسم بينهم. فقد أصدر الأمير يوسف أمراً لأتباعه ومؤيّديه بنصب الكمائن لأخويه. وتمّ القبض أوّلاً على الأمير أفندي فأُحضر مكبّلاً الى دار الأمير الذي تولّى قتله بنفسه، أما الأمير سيّد أحمد، فقد فرّ هارباً مع مرافقيه، واستجار بالجنبلاطيين الذين استقبلوه على الرحب والسعة (بسبب الصراع اليزبكي الجنبلاطي) لأن الأمير يوسف كان محابياً لليزبكية وكارهاً الجنبلاطية. التفّت صفوف المعارضة المؤلّفة من الجنبلاطيين وحلفائهم حول الأمير سيّد أحمد، واتفقوا على مهاجمة دير القمر للقضاء على الأمير يوسف والتخلّص من جوره، وذلك بعد أن اشتدّ كره الناس له، وابتعادهم عنه، ولم يعد لديه أصدقاء، خصوصاً بعد أن أقدم على قتل أخيه على مرأى من الناس وملاحقة الأخ الآخر واضطهاده، فمن يجرؤ بعد على التقرّب منه ومصادقته؟ أضف الى ذلك كله الضرائب الجائرة التي فرضها على الناس، والتي كان يضاعفها باستمرار لارضاء جشع الجزّار، غير مبالٍ بهموم الناس ومشاكلهم.

### ب- تدخّل والي دمشق لصالح الامير سيّد أحمد:

لما علم الأمير يوسف بأمر تلك الحشود، استجار بالجزّار في صيدا. أما الأمير سيّد أحمد، فدخل دير القمر التي أمّتها جموع غفيرة من مشايخ البلاد وأعيانها، واتفقوا على تقديم شكوى الى الجزّار سائلينه وضع حدّ لحكم

الأمير يوسف لما فيه من ظلم للناس، وارسال الخلعة للأمير سيّد أحمد، إلاّ أن الجزّار لم يكترث لطلبهم، ووجدها فرصة مؤآتية لتمزيق الجبل وشرذمته، وتأجيج الصراع فيه، فزوّد الأمير يوسف بفرقة من عسكره لمقاتلة أخيه الأمير سيّد أحمد.

سار الأمير يوسف على رأسه تلك الفرقة سالكاً الطريق الساحلي، وحين بلغ الشوف، اصطدم برجال أخيه في قرية عانوت التي تبعد خمسة عشر كيلومتراً عن صيدا، حيث دارت معركة عنيفة اسفرت عن انتصار الأمير يوسف، وفرار الأمير سيّد أحمد وحلفائه الجنبلاطيين باتجاه البقاع، فصادر أملاكهم وأموالهم وأرزاقهم وهدم العديد من منازلهم. أما أعيان البلاد الذين كانوا يناوئونه، فحضروا الى دارته، وقدّموا له الولاء والطاعة.

وما إن وصل الأمير سيّد أحمد الى البقاع، حتى أرسل موفداً من قبله الى والي الشام محمّد باشا العضم، يطلب منه المؤآزرة لعزل أخيه وكسر شوكة الجزّار، لما يعرفه عن عدائه الشديد له. أسرع الوالي الى تلبية طلبه، وفصل له فرقة عسكرية الى البقاع. أمّا الأمير يوسف، فوجّه عساكر الجزّار الذين كانوا لا يزالون بأمرته الى البقاع، مدعومين بفرقة أخرى يقودها أحد قادة مماليك الجزّار.

التقى الفريقان في معركة طاحنة في قبّ الياس، دون أن يتمكّن أيّ منهما من حسمها لصالحه. لذا قفل الأمير سيّد أحمد عائداً الى وادي التيم، وجنود العضم الى دمشق، وانسحب الأمير يوسف الى دير القمر بمرافقة جنود الجزّار الذين لم يلبث أن أمرهم بالعودة الى عكّا.

ج- موقف الجزّار من الصراع القائم بين الأمير يوسف وخاله الأمير اسماعيل:

لم تعرف الإمارة ولا الأمير الحاكم الإستقرار، لأن التنافس كان على أشدّه على السلطة ضمن العائلة الشهابية الواحدة. فأيّ نزاع يقع بين أميرين شهابيين ينعكس نزاعاً حزبياً وعائلياً واقتصادياً على أهالي الجبل. زد على ذلك العنصر الخارجي الذي ما كفّ عن التلاعب بالإمارة، وخصوصاً الجزّار الخبير بشؤونها وشجونها، وقد أصبح محور التجاذب بين الأفرقاء المتنازعين، يناصر فريقاً حيناً، ويعاديه حيناً آخر، وخصوصاً عندما كان كل فريق يعمد الى رفع سقف الضرائب في محاولة للاستئثار برضاه.

ولم يكن الأمير يوسف ينتهي من خصم حتى يبرز له خصوم، ومن بين هؤلاء خاله الأمير اسماعيل حاكم وادي التيم الذي راح يقارعه ليحلّ محلّه. وبلغ النزاع بينهما ذروته، حيث راح كلّ منهما يبحث عن نصير له بين الولاة. فأرسل اسماعيل موفداً من قبله الى الجزّار عارضاً عليه مبلغاً كبيراً من المال مقابل تسلّمه الإمارة. وكان من الطبيعي أن يوافق الجزّار، فاستقدمه الى مقرّه واتفق معه، وزوّده أعداداً وفيرة من الجند توجّه بهم الى صيدا حيث التقى الأمير سيّد أحمد، واتفقا معاً على مقاتلة الأمير يوسف.

وكان مشايخ الجبل قد ارتضوا أن يكون اسماعيل حاكماً عليهم كي يتخلّصوا من جور الأمير يوسف، لذلك مدّوا اليه يد العون في المعركة التي نشبت بينهما، والتي انتهت بهزيمة الأمير يوسف الذي فرّ هارباً الى عكّا. في أثناء ذلك، كان الجزّار قد وصل الى بيروت، واجتمع بالأمير اسماعيل وطالبه

بالمبلغ المتّفق عليه، فلم يجد الأمير بدّاً من زيادة الضرائب على السكّان ليتمكّن من جمع المبلغ. بدأ الناس يتململون ويترحّمون على الأمير يوسف، لأن المبلغ الذي فُرِض عليهم كان فوق طاقتهم. وأخذت العملية جدلاً طويلاً بين الأمير اسماعيل والأهالي حول كيفية جمع المال. وفي هذه الأجواء المشحونة، أرسل مخايل السكروج (أحد شاغلي ديوان الجزّار)، كتاباً الى الأمير يوسف يتمنّى عليه فيه العودة الى جبيل على جناح السرعة، ليتوجّه بعدها الى عكّا لمقابلة الباشا، وعَرْضِ مبلغ من المال يفوق المبلغ الذي دفعه خاله اسماعيل، وبهذا الإجراء تصلح الأحوال، لأن الطاغية يرغب في ذلك لشدّة نهمه للمال.

وما إن اطّلع الأمير يوسف على الرسالة حتى توجّه الى بيروت، ومن ثم الى عكّا برفقة معاونه ومدبّره الشيخ سعد الخوري[١٢] طالباً الأمان، فرحّب بهما الجزّار.

ولما علم الأمير اسماعيل بتلك الأخبار انتابه الرعب والخوف، وسارع الى ارسال كتاب الى الجزّار يعرض عليه مالاً إضافياً كي يستمرّ في الحكم. قَبِل الجزّار، فراح الأمير اسماعيل يفرض الضريبة تلو الأخرى، خصوصاً على العائلات التي عصت أوامره، فضاق الناس به ذرعاً، و لم يعد بمقدورهم تحمّل دفع المال، كما ملّوا القتال العبثي الذي لا ينتهي بين الأمراء والأحزاب. وما

---

[١٢] سعد الخوري: ولد في رشميّا سنة ١٧٢٢ وتوفي في جبيل سنة ١٧٨٦، كان رجلاً ذكيّاً عاون الامير يوسف، وكان مرجعاً لكل أبناء الطوائف اللبنانية، لانه تمتّع بالنزاهة والاخلاص. ومن أحفاده حبيب باشا السعد رئيس مجلس ادارة جبل لبنان خلال عهد المتصرفية، والذي أصبح رئيسا للجمهورية اللبنانية سنة ١٩٣٤.

إن اطّلع الأمير يوسف على تعهّد الأمير اسماعيل للجزّار بدفع المـال مضاعفـاً، حتى قطع عهداً للجزّار بدفع مايتي ألف قرش على ثلاث دفعات، وهـو مبلـغ يفوق أضعافاً ما تعهّد به الأمير اسماعيل.

قَبِلَ الجزّار فرِحاً عرض الأمـير يوسـف، ولكنـه استبقى عنـده الشـيخ سعد الخوري رهينة حتى يُصار الى تسديد كامل المبلغ.

وفي تشرين الثاني من السنة ١٧٨٤، غادر الأمير يوسف عكّا تسـانده عساكر الجزّار، فوصل الى دير القمر مع بزوغ الفجر. وبما ان الأمير اسمـاعيل كان مطمئنّ البال من وعد البشناقي له باستمراره في حكم الإمـارة، لم يخطـر في باله أن الأمير يوسف سيدخل دير القمر عسكرياً، فلم يتّخذ ايّ احتياطات عسكرية. لذلك، وبكل سهولة، تمكّن الأمير يوسف من توزيع جيشه في كـل النواحي، وسدّ منافذ البلدة، وحاصر مقرّ الأمير اسماعيل، وقبض عليه وأودعه السجن حيث أذاقه مرّ العذاب، ووضع عليه حراسة مشدّدة.

ومن جديد، دانت البلاد لحكم الأمير يوسف، ففرض سيطرته عليهـا، وجمع مالاً من السكّان بكل ما توفرّ له من وسائل ، وأدّى للجـزّار مـا تعهّـد به. أما الأمير اسماعيل، فقد قضـى نحبـه في السـجن بعـد أن أمضـى فيـه فـترة طويلة.

## د- الأمير يوسف يقضي على خصومه:

في السنة ١٧٨٨، أي في السنة عينها التي عُزل فيها الجـزّار عـن ولايـة دمشق، استغلّ الامير يوسف الفرصة ليقضي على خصومه فرداً فرداً. فـأودع

خاله اسماعيل السـجن كمـا اسلفنا، أمّـا خالـه الآخر بشير (وكـان حـاكم حاصبيا) فقد تمكّن من الفـرار، فأرسـل اليه كتاباً يتعهّـد فيه الاّ يمسّـه بـأيّ مكروه إن حضر الى دير القمر. اطمأنّ بشير، وحضر الى دير القمـر، غـير أن الأمير يوسف لم يحترم عهده فغدر به وقتله. كمـا لم يوفّـر الأمـير سيّد أحمـد خصمه الآخر فألقى القبض عليه. ولم يدع خصماً إلاّ ونكّـل بـه أو زجّـه في السجن أو قتله، ظنّاً أنه بالقضاء على الخصوم تخلو الساحة له ويأمن ألاعيـب الجزّار الذي لن يجد بعد ذلك شهابياً يناصره عليه. ومـن هـذا المنطلـق امتنع لاحقاً عن دفع الأموال وشقّ عصا الطاعة.

## II– عزل الأمير يوسف مجدّداً عن الإمارة:

بعـد أن تغلّـب الأمـير يوسـف علـى العديـد مـن أعدائـه ، ولا سـيّما منافسيه من الأمراء الشهابيّين، راح يحصّن وضعـه الداخلـي تدريجيّـاً لمواجهـة الخصم الأكبر أحمد باشا الجزّار، لأنه صمّم على مقاومته، وقـد أصبـح العـداء بين الطرفين مستحكماً.

لم يكتفِ الأمير يوسف بتعزيـز وضعـه الداخلـي فحسـب، إنمـا تعدّاه ليقيـم تحالفـات خارجيـة مـع الباشـوات المعـادين للجـزّار، أمثـال والي الشـام وغيره. وانتقاماً من الأمير يوسف، بعد أن عرف باتفاقاتــه مـع الـولاة ضـدّه، سيّر الجزّار فرقة من عساكره الى صيدا وجباع، وفرقة أخرى الى جبل لبنـان، لدحر الأمير وتعيين شهابي آخر منافس له.

بالمقابل، جهّز الأمير يوسف رجاله، وقسّمهم ثلاث فرق لمقاتلة الجزّار وعساكره حيثما حلّوا ضمن نطاق إمارته. الأولى سيّرها الى البقـاع بمساندة

سليمان باشا بعد حضوره الى دير القمر، وكان عسكر الجزّار قد استولى على مواسم سهل البقاع فكانت المواجهة وانهزم هذا العسكر . أمّا الفرقة الثانية، فاتّجهت نحو وادي التيم وطردت عساكر الجزّار منه، فانكفأوا باتجاه عكّا، لكن سيّدها جهّز الفي عسكري وأمرهم بالعودة الى وادي التيم لطرد عساكر الجبل. وبالمقابل، جهّز الأمير يوسف رجاله ودعمهم بمايتي خيّال هوّارة[١٣] من الذين كانوا مع سليم باشا، الذي أصبح مقرّباً من الأمير يوسف. التقى الطرفان في البقاع الغربي، وخاضا معركة عنيفة انتصر فيها جند الجزّار، وطاردوا فلول رجال الأمير يوسف ولحقوا بهم الى دير القمر فحاصروها وسدّوا مداخلها.

لّما شعر الأمير يوسف بعجزه عن تحقيق أيّ نصر عسكري على جنود الجزّار، وعن متابعة المقاومة، جمع أهالي البلاد، وكان ذلك في السنة ١٧٨٨، وطلب من كبار القوم أن يختاروا واحداً من أبناء عمّه حاكماً عليهم، لأن الحكم الذي انتقل إثر موت الأمير احمد المعني من المعنيين الى آل شهاب السنة ١٦٩٧، أصبح منوطاً بهم ينتقل من أمير الى آخر.

## ١- اعتزال الأمير يوسف الحكم:

مع اشتداد الخلاف بين الأمير يوسف والجزّار، وبناءً على رغبة والي عكّا، اتفق أعيان جبل لبنان سنة ١٧٨٨ على أن يكون بشير الثاني أميراً على جبل لبنان. وكان حينها شاباً يافعاً، اكتسبَ خبرة واسعة بشؤون البلاد

---

(١٣) هوّارة: قبيلة في مصر سيطرت على الصعيد وحكمته حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر.

نتيجة تمرّسه بالحياة السياسية خلال وجوده لدى الأمير يوسف.

ويُقال ان الأمير يوسف، لمّا أمر الأمير بشير بالذهاب الى عكّا ليكون رهينة عند الجزّار قال له: "سر يا ولدي الى الجزّار في شغل"، فأجابه للتوّ: "أخاف أن أذهب ولدك وأرجع ولد الجزّار". فانزعج الأمير يوسف لهذا الجواب، ولكنه تظاهر باللامبالاة وأجابه بابتسامة ساخرة: "على سلامتك يا ولدي مهما عملت، ياكلها السبع ولا ياكلها الضبع". وأصبح هذا الجواب من الأقوال المأثورة لدى اللبنانيين. ومن المعلوم ان تعيين أمراء جبل لبنان كان منوطاً بالولاة الأقوياء، ولعلّ أقوى الولاة آنذاك قاطبة كان أحمد باشا الجزّار الذي تميّز بالحنكة والدهاء السياسي، وأمّن للخزانة السلطانية مداخيل لم يؤمّنها والٍ من قبل.

توجّه الأمير بشير الثاني الى عكّا حاملاً الى الجزّار توصية من الشيخ بشير جنبلاط زعيم الجنبلاطيين وأقواهم. وفي الوقت عينه، كان لدى الجزّار موظّفان يعملان في دائرته في يدهما الحلّ والربط (أحدهما من عائلة السكروج) وقد لعبا دوراً بارزاً في مساعدة بشير على تولّي الإمارة. زد على ذلك أن هناك عاملاً أساسياً ساعد بشيراً للوصول الى السلطة، وهو انقلاب مماليك الجزّار عليه سنة ١٧٨٨ ومسارعة الأمير يوسف الى تأييدهم، فسارع الجزّار للقضاء عليهم وعلى تمرّدهم، ثم توجّه لتأديب الأمير يوسف ممّا اضطُرَّه الى التخلّي عن الإمارة. كل هذه العوامل عزّزت وضع الأمير بشير لتتمّ توليته أميراً على لبنان بمباركة الجزّار ودعم الجنبلاطيين له.

منح الجزّار خلعة الإمارة للأمير بشير، وزوّده أمراً يقضي بضرورة التخلّص من الأمير يوسف، فبموته تهدأ الإمارة وتستكين. فما كان من بشير

إلاّ أن أوعز لسلفه بضرورة مغادرة البلاد، تلافياً لحدوث مجابهة تُفرض عليهما دون أن يكون له ارادة فيها، خاصة وأنّ الجزّار قد وضع تحت إمرته فرقة من عسكره لهذا الغرض.

ودّع الأمير بشير الجزّار، وغادر عكّا الى دير القمر حاكماً على جبل لبنان، وعرّج في طريقه على مدينة صيدا التي استقبلته استقبالاً لا مثيل له، وأقامت له احتفالاً عظيماً، وسارع أعيان البلاد للترحيب به، في الوقت الذي ترك الأمير يوسف الإمارة ورحل مع بعض أبناء عمّه وعدد قليل من مؤيّديه الى بلاد جبيل.

لم يقتصر استقبال بشير الحارّ على مدينة صيدا فحسب، إنما تعدّاه الى دير القمر حيث استُقبل بالرياحين والزهور، وقدّم له المشايخ وأعيان الجبل قاطبة التهاني متمنّين له دوام التوفيق، كما قدّموا له الولاء والطاعة بطيبة خاطر، فرِحين بتخلّصهم من استبداد الأمير يوسف ومن الضرائب الجائرة التي أنزلها بهم استرضاءً لطلبات الجزّار التي كانت من الأسباب الرئيسية التي أدّت الى استبعاده عن الإمارة وعزله عنها.

## ٢- الجزّار يأمر بطرد الأمير يوسف من كلّ جبل لبنان:

لم يكتفِ الجزّار بعزل الأمير يوسف عن حكم الإمارة اللبنانية واضطراره لترك دير القمر وانتقاله الى جبيل، بل صمّم على طرده من كل لبنان إمعاناً في إذلاله. لهذا، ما كاد الأمير بشير يصل دير القمر، حتى أرسل اليه الجزّار أمراً يقضي بطرد الأمير يوسف الى خارج الإمارة.

وبديهي أن يلتزم الأمير أوامر من نصّبه حاكماً، فتوجّه على رأس قوّة

عسكرية كان قد أرسلها اليه الجزّار الى بلاد جبيل حيث تلاقى الطرفان في معركة حامية دافع فيها الأمير يوسف عن موقعه بكلّ عـزم وإرادة، فألحق في بادئ الأمر الهزيمة بعساكر الجزّار الذي كانوا بأمرة الأمير بشـير، وقتـل منهـم ما يقارب مئة عنصر. غير أن نتيجة المعركة سرعان ما تَغيّرت بعـد ان تلقّـى الأمير نجدة من قوّاته الخاصة وصلت على عجلٍ من دير القمر، فشـنّ هجوماً مضاداً ردّ فيه جنود الأمير يوسف على أعقابهم، وحـاصرهم في دائـرة ضيّقـة المساحة، وانقضّ عليهم مع رجاله الذين أعملوا فيهم القتل فقضوا على عـدد كبير منهم، فيما لاذ الباقون الى الفرار. أمـا الأمـير يوسـف، فقـد نجـا بنفسـه وولّى هارباً الى جرد جبيـل، ومنـه تـابع مسـيره الى البقـاع، فالشـام، حيـث استجار بواليهـا آنـذاك أوزون ابراهيـم باشـا، وكـانت بينهمـا معرفـة قديمـة، فوقف هذا الأخير على خاطره، وقطع على نفسه عهداً بإعادته الى جبيل بعد رجوعه من الحجّ.

## ٣- الأمير يوسف مجدّداً أمير على لبنان:

عاد الأمير بشير منتصراً الى دير القمر بعد أن أنجز مهمّته، فيما عـادت عساكر الجزّار أدراجها الى عكّا، وكان ذلك سنة ١٧٩٠م. وفي السنة عينها، وبعد رجوع أوزون باشا من الحجّ، وفى بتعهّداته للأمير يوسف، وأنعم عليـه بحكم بلاد جبيل.

ولّما علم الجزّار بعودة الأمير يوسف الى جبيل، كتـب الى الأمـير بشير كي يتولّى قيادة عساكره الذين أرسلهم الى بيروت ويتوجّـه إلى جبيـل لطرد الأمير يوسف من المنطقة كلّها.إلاّ أن الأمير يوسف تنبّه لما قد يستجدّ، فقفـل

راجعاً الى الشام، وأمر الذين معه بالانصراف ، ومن ثم توجّه الى حوران، ومن هناك أرسل الى الجزّار كتاب اعتذار عن أخطائه تجاهه طالباً الصفح والأمان، وأضاف انه اذا ما عرض عليه الجزّار الحضور الى مقرّه، فهو لن يتأخّر عن المثول أمامه، شرط أن يتعهّد بألاّ يمسّه بمكروه، فوعده الجزّار بالأمان.

توجّه الأمير يوسف الى عكّا، فاستقبله الباشا واستبقاه عنده. أمّا الأمير بشير، فلمّا بلغه نبأ حضور الأمير يوسف الى الجزّار وإكرام هذا الأخير له، تحسّب لذلك، لأنه يعرف طبيعة الطاغية المتقلّبة التي لا تستقرّ على رأي، فكتب الى باشا عكّا يستوضحه الأمر. ردّ الجزّار على تخوّفات الأمير، وطمأنه بأنه سيبقيه على رأس الإمارة، وأنّه لن يغيّر موقفه منه مهما تبدلّت الظروف.

وعلى الرغم من تطمينات الجزّار، لم يصدّق الأمير بشير وعوده، لأنه كان عليماً بشخصيته الخدّاعة، ويعرف أيضاً انه لا يريد للبنان الإستكانة والهدوء، وهو الممسك بزمام أموره من خلال أمرائه المتهافتين على شراء الإمارة بالمزاد، بل هو المخطّط الكبير لاستبقائه في مستنقع النزاعات، وهو وراء تأجيج الصراعات الحزبية والعائلية في الجبل وإذكاء نار الفتنة فيه.

وما كان استقبال الجزّار للأمير يوسف في عكّا إلاّ ليزيد بشيراً اقتناعاً باستمرارية تلاعب الجزّار بالإمارة اللبنانية بشكل عام، وبالأمير بشير بشكل خاص. وهل يُعقل أن يستقبل الجزّار الأمير يوسف بحفاوة، وهو لم ينسَ بعد موقفه الى جانب العصاة من مماليكه، لو لم يكن ينوي زعزعة الإمارة

واستدرار المال؟.

إذاً عنصر المال هو العامل الاساسي الـذي يبـدّل رأي الجـزّار بسـرعة، فيولي أميراً ويعزل آخر، لأنّ اعوجاج حكمه كان يقضي بأن يولّي من يحقّـق له مطالبه المالية، وقد وجد الفرصة سانحة لتحقيق غايته.

بقي الأمير يوسف في عكّـا طيلـة خمسـة أشـهر، يراقـب التطـوّرات ، ويخطّط للعودة الى الإمارة، ويتداول مع الجزّار في شتى الأمـور للوصـول الى غايته. وبعد إلحاح الأمـير يوسـف المتكـرّر، طلـب منـه الجـزّار أن يسـتدعي مستشاره الشيخ غندور الخوري الى عكّا ليكون بمثابة رهينة حتى يدفع ألفي كيس خلال سنة، مقابل تنصيبه على الإمارة اللبنانية بـدلاً مـن الأمـير بشـير. ولم يكتفِ الجزّار بذلك، بل حرّر بنفسه كتاباً الى الشيخ غندور بهذا الشأن.

وما كاد الكتاب يصل الى الشيخ غندور[١٤] ، حتـى سـارع الى عكّـا، فأنعم الجزّار على الأمير يوسف بخلعة الإمارة، وأمر بتحرير رسـائل الى كبـار أعيان الجبل لتأييد الأمير يوسف ومساندته وتقديم الولاء والطاعة له.

هكذا كانت سياسة الجزّار تتقلّب وفق مصالحه، فكـان يتتبّـع أخبـار الإمارة ويرصدها بدقّة متناهية، حتى إذا لمس هزيمة فريق يسارع الى مناصرته لينتصر على الفريق الآخر، ومن ثم يعود فيناصر المهـزوم علـى المنتصـر ليبقى هو المرجعية الصالحة للفصل بكل الأمور.

---

[١٤] وكان ذلك سنة ١٧٩١.

## ٤- عزل الأمير يوسف من جديد:

لما بلغ الأمير بشير خبر تعيين الأمير يوسف مكانه، سارع الى عكّا، ودفع أضعاف ما دفعه الأمير يوسف. فرح الجزّار بهذا المبلغ الضخم، وقَبِل به، وعزل الأمير يوسف وأحلّ بشيراً مكانه بعد أن حرّر هذا الأخير سنداً بقيمة ثلاثة آلاف وخمسماية كيس يدفعها على قسطين. هذا المبلغ الكبير من أين يُجبى؟ بالطبع من الأهالي!. ولما وصل الأمير بشير الى دير القمر، فرض ضريبة عالية حتى تمكّن من الوفاء بما تعهّد به، إلاّ أن جباية هذا المبلغ تمّت بصعوبة فائقة، لأن معظم الأهالي لم يعد بمقدورهم تحمّل الضرائب المتوالية. وعند اكتمال الجباية، أرسل المبلغ الى عكّا ، فاستلمه واليها الذي بارك بشيراً ورضي عنه الى حين، كما سجن الأمير يوسف وحاشيته. وفي السنة عينها (١٧٩١)، قبض الجزّار (وبخاصة في بيروت) على العديد من السكّان الذين لم يتمكّنوا من دفع المتوجّب عليهم، ولاحق الذين فرّوا من المدينة هرباً من بطشه. أما الذين وقعوا في قبضته، فأُشبعوا ضرباً وتنكيلاً، وقاسوا العذاب ، وصودرت أموالهم، ثم زُجّ بهم في غياهب السجون. وللتخفيف عمّا حلّ بهم من اضطهاد وعذاب، باعوا ما بقي لديهم من مقتنيات بأبخس الأثمان، ودفعوها للطاغية ليفرج عنهم.

لم يعتقد الجزّار أن الأمير بشيراً الفتيّ سوف يتمكّن من حكم جبل لبنان الذي مزّقته الحزبيات والأنانيات والزعامات الداخلية المتعدّدة الجوانب، بالاضافة الى كثرة اللاهثين لتولّي الإمارة ولو على اشلاء الناس. لهذا كلّه ظنّ انه يستطيع أن يتحكّم فيه كما يشاء، تماماً كما اعتقد الأمير يوسف. غير أن نظرة كلّ منهما الى بشير جاءت خائبة، لأن نجمه قد سطع بعد أن جابه

العراقيل بالرويّة حيناً والقـوّة العسـكرية أحيانـاً أخرى، بالإضافـة الى إرضـاء الجزّار بالمال ليكفّ عنه. وفوق كل ذلك زرع الخلافات والفتن بين خصومه المحلّيين ليلهيهم عن التآمر عليه. لكنه لم يتمكّـن مـن ترسـيخ حكمـه إلاّ سـنة ١٧٩١ بعد أن أغرى الجزّار وأقنعه بضرورة إعدام الأمـير يوسـف والتخلّص منه لأنه ظل يؤلّب الأعداء عليه ويثير القلاقل في الإمارة.

## ٥- نهاية الأمير يوسف:

في سـنة ١٧٩١ كـان الجـزّار قـد اسـتدعى كـلاًّ مـن الأمـير يوسـف، والشيخ غندور ابن الشيخ سعد الخوري[١٥]، وفارس الشـدياق، وعشـرة مـن مشايخ آل الدحداح. وبعد حضورهم الى عكّا، أوفد الأمير بشير رسلاً لمقابلة الجزّار أغدقوا عليه الوعود مقابل قضائه على الأمير يوسف، كما تعهّد الشيخ بشير جنبلاط له بمئتي كيس وراح يحرّضه لينتهي من خصمـه، فمـا كـان مـن الجزّار إلا أن أودعه السـجن، ثـم سـافر الى الحجـاز لأداء فريضـة الحـجّ. وفي الطريق، وصله كتاب من الأمير بشير يشكو فيه ما سـبّبه الأمـير يوسـف مـن إزعاج وقلاقل، فكتب الجزّار الى نائبه في عكّا ليقتل الأمير يوسف، ثـم شعر بالندم على تسرّعه، فبعث برسالة ثانية يأمر فيها بـالعفو عنـه، لكـن الرسالة وصلـت متـأخّرة، وقضـى الأمـير يوسـف شـنقاً. وكـان كـاتب الجـزّار ابـن السكروج قد أخفى الرسالة خدمة للأمير بشير. ولما عـاد الجـزّار وتحقّـق مـن ذلك، أمر بقتل كاتبه.

---

[١٥] كان الشيخ غندور قنصلاً لفرنسا منذ عام ١٧٨٨، وقد عُيِّن من قِبَل الملك لويـس السادس عشر في بيروت.

## ٣ التجاذب بين الجزّار والأمير بشير

### ١- بداية حكم الأمير بشير:



الأمير بشير الشهابي الثاني(١٧٨٨-١٨٤٠)

لم يكن القضاء على الأمير يوسف خاتمة مأساة الأمير بشير مع الجزّار، صحيح أنه بموت الأمير يوسف يكون بشير قد أزاح عن كتفيه حملاً ثقيلاً ، ولكن متاعبه بالتأكيد لم تنتهِ، إذ استمرّ الجزّار كعادته يغرق الإمارة بالمصاعب والمكائد والدسائس، وقد اعترف بندمه على إعدام الأمير يوسف لكونه خسر بذلك وسيلة ضغط يمكنه أن يلوّح بها في وجه الأمير الجديد كلّما حاول ان يتمرّد على سلطته أو يستقلّ عن زعامته، فأخذ يلجأ الى بعض الأمراء الشهابيّين لإغرائهم بالطمع في حكم جبل لبنان.

ومما لا شكّ فيه، أنه لو كان أقارب الأمير يوسف أقلّ جشعاً مما كانوا عليه، وأرادوا أن يمدّوا يد المعونة الى أولاده وينتظروا بلوغهم سنّ

الرشد لإيصالهم الى الحكم، لكانوا جنّبوا الإمارة ويلات الحروب وهدر الدماء. فالأميران حيدر وقعدان شهاب (عمّا أولاد الأمير يوسف) طمحا الى الحكم، وحاربا الأمير بشير سنوات. إضافة الى التنافس بين الزعماء الشهابيين على السلطة. ومّما زاد الطين بلّة، سنوات القحط التي ضربت الجبل وأمعنت في افقار الناس وإتعاسهم. في مثل هذه الحالة الاجتماعية والإقتصادية والمالية المتردّية، قام الأمير بشير بفرض الضرائب الباهظة على الذين صمّموا على رفضها مهما كانت النتائج، لأنهم لا يستطيعون تحمّلها، وأبلغوا الى الجزّار قرارهم الرافض هذا. وفي الوقت عينه، طلب الأمير بشير مساعدة الجزّار العسكرية لتأديب العصاة، فأرسل له شرذمة من الأرناؤوط، التي ما كادت تصل الى ضفاف نهر الدامور حتى انقضّ عليها مقاتلو الجبل وتمكّنوا من قتل عدد كبير من أفرادها. ولما علم الجزّار بذلك، أرسل مجدّداً فرقة من عساكره دخلت البقاع وصادرت غلاله. أما الأمير بشير، فدخل في مواجهات عديدة مع أهل الجبل الرافضين دفع الضرائب، وكانت الغلبة في كثير من الأحيان لأهالي البلاد.

واستمرّت الحروب والمناوشات فترة زادت على الأربعة أشهر من سنة ١٧٩١.

## ٢- خلع الأمير بشير:

عندما لم يتمكّن الأمير بشير من حسم المعارك لصالحه، ومن ضبط أمور البلاد، اضطرّ الجزّار الى سحب عساكره وعزله عن الحكم، وتسليم خلعة الإمارة مُكرهاً للأميرين الشهابيين قعدان وحيدر اللذين أطاعهما

السكّان ونادوا باسمهما، واستمرّا في الحكم ثلاث سنوات تقريباً (حتى سنة ١٧٩٤).

## ٣- عودة الأمير بشير الى الحكم:

### أ- معركة حاصبيا:

أمضى الأمير بشير ثلاث سنوات بعيداً عن الحكم، وكان يخطّط دائماً للعودة، ولم يَدَعْ مناسبة تفوته ليستعيد السلطة، إنما دون جدوى.

في سنة ١٧٩٤، وفيما الجزّار عائداً من الحجّ، توجّه الأمير بشير لموافاته في صحراء المزاريب[١٦] فقابله وهنّأه بسلامة عودته. وكان الجزّار يكنّ الكره والعداء للأميرين قعدان وحيدر شهاب، ولم ينسَ مقاومتهما لجنوده، وأراد مجدّداً إثارة القلاقل في جبل لبنان كي لا يعرف الهدوء، فأصدر أمراً بعودة الأمير بشير الى الحكم، وفصل له عساكر يُسيّرها لاستلام الامارة وعزل الأميرين قعدان وحيدر.

غير أن عودة الأمير بشير الى السلطة لم تكن بالأمر اليسير، فقد واجهته مشاكل كبيرة وحروب طاحنة لأن غالبية سكّان الإمارة تؤيّد استمرارية الأميرين في الحكم. ولم ينسَ الأهالي وطأة الضرائب التي فرضها بشير عليهم فأفقرتهم. ولهذا، كان الإلتفاف حول قعدان وحيدر من كلّ المناطق دعماً لهما. ولم يكن من الممكن قبول معظم الأهالي تولّي بشير الإمارة مجدّداً، إلاّ إذا أُرغموا وأُخضعوا بقوّة السلاح.

---

(١٦) صحراء المزاريب: منطقة على طريق الحج.

وكانت الخطوة الاولى التي قام بها الأمير بشير في طريقه لإعادة تسلّم الإمارة، توجّهه الى حاصبيا لإخضاع وجهائها المؤيّدين للأميرين قعدان وحيدر. فلما علم هذان الأخيران بقدوم الأمير بشير على رأس عسكر الأرناؤوط، لاذا بالفرار، فدخل الأمير حاصبيا دون قتال، واستبقى فيها ألف مقاتل للمحافظة على الأمن. أما سائر العساكر، فتوجّهوا الى صيدا، ومنها الى الشوف ليحطّوا الرحال في بلدة علمان القريبة من صيدا، والتي لا تبعد عنها اكثر من ثلاث كيلو مترات، حيث بدأوا الإستعدادات العسكرية اللازمة لدخول عمق الشوف، وصولاً الى دير القمر. في اثناء ذلك، أُبلغ الأمير بشير ان عسكر الأرناؤوط الذين تركهم في حاصبيا قد حوصروا من قِبَل أهاليها، فاضطُرّ أن يؤخّر دخوله الإمارة حتى يفكّ الحصار عن الأرناؤوط، ويوطّد دعائم سلطته في منطقة وادي التيم(١٧) .

ونظراً لبُعد المسافة بين علمان وحاصبيا، سلك الأمير طريق بلاد بشارة، وبات ليلته هناك. وفي اليوم التالي، حطّ رحاله في مرجعيون، وفي اليوم الثالث وصل حاصبيا. وكانت المواجهة مع خصومه عنيفة ولم تستمرّ أكثر من ساعتين، أظهر فيها رجال منطقة وادي التيم إقداماً وحنكة في القتال، ووضعوا ثقلهم في المعركة، حتى ألحقوا الهزيمة بالأمير وعساكر الجزّار معاً، الذين اضطُرّوا للتراجع، فتبعثرت قوى الأمير وتشتّت جنوده، وتتبّع أهالي حاصبيا آثارهم فاستولوا على كمّيات كبيرة من السلاح وعلى أعداد من الخيل. لكن الأمير بشير تمكّن ببراعة فائقة من إعادة تجميع فلول جنوده،

---

(١٧) وادي التيم : حاصبيا وراشيا.

ورسم مع قادته خطّة سريعة للعودة الى حاصبيا وإخضاعها.

أمر بشير العساكر بالهجوم على وادي التيم، فانقضّوا على الخصوم الذين كانوا قد تفرّقوا، فاستفردوهم، وألحقوا الهزيمة بهم، وطردوهم من تلك الديار، بعد أن هلك منهم عدد وفير. وبعد ذلك، أضرموا النار في حاصبيا والقرى المحيطة بها، كما استولوا على كلّ ما طالت أيديهم من مواشٍ وخيل وأسلحة وذخائر. وفي اليوم التالي، أُعلم الجزّار عن الإنتصارات التي حقّقها بشير، ومدّه يد العون للأرناؤوط الذين كانوا محاصَرين في ظروف صعبة، وكادوا يشرفون على الهلاك، لو لم يسارع الأمير الى نجدتهم وفكّ الحصار عنهم.

## ب- معركة الشوف (موقعة شحيم):

بعد انتصار الأمير بشير في معركة حاصبيا، ارتدّ الى الشوف. وبينما كان يتهيّأ لاجتياز الجبال الى دير القمر، وصلته توجيهات عسكرية من الجزّار تقضي بضرورة عودته الى صيدا، لأن أخذ الجبل من نواحي صيدا أسهل وأقرب مسافة لإيصال كل ما يحتاجه من لوازم عسكرية ومؤن. فلبّى الأمير الأوامر دون تردّد، وعاد الى صيدا، ومنها انطلق الى القرى الشوفية للوصول الى دير القمر. ولما علم الأميران قعدان وحيدر شهاب، حاكما الجبل آنذاك، بقدوم الأمير بشير وتصميمه على ضربهما، استعدّا للمواجهة .

توجّه الأمير بشير الى منطقة الشوف من الغرب الى الشرق، ونزل الأميران من شرق الجبل باتجاه غربه، فالتقى الفريقان في بلدة شحيم، والتحما في معركة حامية سقط فيها عدد كبير من الجنود، وأظهر رجال الأميرين

قعدان وحيدر ثباتاً في القتال، حتى كان النصر حليفهما، وفرّت عساكر بشير مخلّفة وراءها السلاح وأعداداً من الخيل استولى عليها أهالي الجبل.

صحيح ان تلك المعركة انتهت، ولكن الحرب بالتأكيد لم تنتهِ. ففي اليوم التالي تجدّدت المعارك في الجبل، بعد ان دخل عساكر الجزّار المعركة بقوّة، فأحرقوا ودمّروا العديد من القرى. وفي المساء، انسحبوا الى صيدا ليستعدّوا للمعركة الحاسمة.

## ج- موقعة عانوت:

في عانوت، البلدة الشوفية المتاخمة لبلدة شحيم، دارت رحى معركة رهيبة استمرت حتى ساعات الفجر الأولى، دون أن يتمكّن أيّ من الفريقين من حسمها.

بنتيجة هذه المعركة، أيقن الجزّار أنّه لا يمكن السيطرة على جبل لبنان بالقتال، لأن سكّانه جسورون، اعتادوا المقاومة والكفاح في سبيل الحرّية والاستقلال، إضافة الى صعوبة المعارك فيه كون طرقاته صعبة المسالك ووعرة، الأمر الذي يكبّد المهاجمين ضحايا كثيرة دون أن ينالوا مكاسب تذكر في المقابل.

لهذا، أصرّ الجزّار على الأمير بشير أن ينكفئ مع عسكره الى صيدا، وأن يسكن المدينة مع عائلته وأخيه الأمير حسن، ولا يغادرها إلاّ بإذن منه الى حين تتبدّل الظروف وتصبح ملائمة لتولّي الإمارة.

## ٤- الإمارة بين الأمير بشير وقعدان وحيدر شهاب:

بعد انكفاء عساكر الجزّار الى صيدا، وتوقّفها عن القتال بإيعاز شخصي منه، تنفّس أهالي الجبل الصعداء، إلاّ أنّهم لم يطمئنّ لهم بال لأنهم لا يدرون متى يعيد الطاغية الكرّة لإشعال الجبل مجدّداً، ونشر الخراب والدمار فيه. وتداركاً لكلّ أشكال العنف، وحقناً للدماء، قام معظم مشايخ البلاد بتحرير رسائل الى الجزّار يطلبون فيها الصفح عمّا مضى، وفتح صفحة جديدة، والقبول بالأميرين حيدر وقعدان حاكمين على الجبل، ويبدون استعدادهم لدفع أربعة آلاف كيس لخزينته مقسّطة على ست سنوات. ولما وصل هذا العرض الى الجزّار، سأل عن السبب الذي دفع بأهل البلاد الى المجابهة والعصيان، فجاءه الردّ أن السبب هو المظالم التي ارتكبها بشير بحقّهم، وخصوصاً الضريبة التي كانوا يؤدّونها مضاعفة على الرغم من شحّ مواردهم وبوار مواسمهم، وكيف سيتمكّن من كانت هذه حاله من دفع ضريبة؟ وكيف يُحمِّلون أنفسهم فوق طاقتها؟ فأهل الجبل لا مال عندهم ولا غلال ولا مواسم، ويعانون شتّى أنواع القهر والتعسّف. أليس الجور والظلم والفقر هي الدافع الى الثورة والمقاومة؟ فأهالي لبنان لا يمكن أن يستكينوا أو أن يهدأوا إذا تكبّلت حرّيتهم بقيود، لأن حرّيتهم ارتبطت بأرضهم، فعاشوا من أجل الحرّية وقاتلوا في سبيلها. يخلدون الى السكينة حيناً عندما لا تكون الظروف مؤاتية ويسكتون على ضيم، ويثورون عندما تسنح الفرص. ثم أنهوا كلامهم بالقول: إذا ما أردت أن ترتاح البلاد، يجب استبقاء الأميرين حيدر وقعدان شهاب على رأس الإمارة. ثم قدّموا له الهدايا والنفائس الثمينة،

فاغتبط ووجّه الى الاميرين القبول والرضى بالحكم، وذلك سنة ١٧٩٤.

لم يتمكّن الأميران من إدارة دفّة الحكم أكثر من سنة. وما إن أطلّ عام ١٧٩٥ حتى أدركا ان استمرارهما على رأس الإمارة أصبح من المستحيلات بعد أن استشرى الفساد في البلاد وعمّت الفوضى وأحجم العديد من الأهالي عن دفع الضريبة، وتمرّدوا على الحاكمين. صحيح أن الأهالي طالبوا بهما لتولّي الإمارة على أمل أن يخفّفا عنهم وطأة الضرائب، لكن هذا الأمل تبدّد لا بل ازدادت المشاكل وتراكمت، بسبب التعقيدات السياسية والمتاعب التي تسبّب بها خصوم الأميرين، ومنهم الجنبلاطيون الذين كانوا يتمنّون عودة بشير، لما كان بين الفريقين من علاقة متينة ومصلحة مشتركة، فابتعاد بشير عن الإمارة يعني ابعاد الجنبلاطيين عنها، ووصول بشير الى الحكم يؤدّي الى بروزهم على الساحة السياسية كفئة متنفّذة وبارزة.

بلغ تذمّر الأهالي من الأميرين قعدان وحيدر ذروته، فشعرا ببوادر تمرّد وعصيان لدى الناس، وكانا يخشيان ان تسارع الدولة العليّة الى عزلهما وتعيين الأمير بشير لأنه الأوفر حظّاً بين سائر الأمراء الشهابيين، ولأن الجزّار نفسه يريده للحكم كذلك، لهذا كلّه وجّها دعوة الى أعيان البلاد للتشاور. فتمّ الرأي على أن يبلغ الجزّار برغبتهم في أن يتولّى أبناء الأمير يوسف الشهابي الحكم بدلاً من الأميرين قعدان وحيدر.

## ٥- الإمارة بين الأمير بشير وأبناء الأمير يوسف:

مع تولية أبناء الأمير يوسف الحكم، يكون الجزّار قد زاد سعير النار في الإمارة، وزاد الشرّ بين اللبنانيين وبين الأمراء خصوصاً، ولاسيّما بين الأمير

بشير ومن ورائه الجنبلاطيين وبين أبناء الأمير يوسف ومؤيّديهم. من ابرز الخطوات التي أقدم عليها الحكّام الجدد أن أثقلوا الجنبلاطيين بضرائب فادحة لقهرهم بسبب موقفهم العدائي لهم، واضطهدوهم، ممّا اضطرّ هؤلاء للوقوف في وجههم. وإمعاناً في زيارة التصدّع بين أبناء الجبل وتضارب الآراء في البلاد، لجأ الجزّار الى تعيين الأمير بشير أميراً على لبنان، وأعدّ له عساكر يؤآزرونه لتسلّم الحكم، وكان من شأن هذا الإجراء أن يتسبّب في حروب طويلة، ومآسٍ دامية بين الطرفين. وهذا التعيين كان عن سابق تصوّر وتصميم، انتهجه الطاغية عمداً لإبقاء الجبل في حالة اضطراب وفوضى، فهذه الألاعيب الغدّارة والسياسة الماكرة التي لجأ اليها ورسم أطرها السياسية منذ اللحظة الأولى لتعيينه والياً، اقتبسها عن أسياده باشوات استانبول أصحاب نظرية: "فرِّق تَسُدْ".

## أ- الأمير بشير مجدّداً في الحكم:

استعدّ الأمير بشير (برفقة اخيه حسن) للتوجّه الى دير القمر لاستلام الإمارة، بعد ان تعهّد الشقيقان للجزّار بدفع خمسين كيساً كل شهر، وأن يتركا اولادهما عنده رهائن. كانت فرحة الجنبلاطيين كبيرة، فاتّجهوا الى صيدا بمعيّة زعيمهم الشيخ بشير جنبلاط وجمع من كبار أعيان الشوف لتقديم تهانيهم. ولما علم الأميران حسين وسعد الدين ولدا الأمير يوسف بما أعدّه لهما الجزّار من مكائد، هربا الى بلاد جبيل خوفاً من بطشه، والتمسا مساعدة باشا دمشق دون طائل، فيمّما شطر طرابلس مستنجدين بواليها الذي خيّب أملهما أيضاً. وكان الجزّار، الذي يجني ثماراً طيّبة من تعاقب

الأمراء على كرسي الحكم، يحاول دائماً اقلاق بال الذين نصّبهم بنفسه، فعرض مساعدته على ابني الأمير يوسف، بعد أن نشداها عند غيره و لم يظفرا بها، فقبلاها سريعاً، وهرعا اليه، فاستبقاهما عنده ريثما تحين الفرصة لإعادتهما الى الحكم.

دخل الأمير بشير مقرّ الإمارة، فقدّم معظم الأهالي ولاءهم له. ثم انتقل الى منطقة المتن، وبقي فيها ما يقارب الثلاثة أشهر، جمع خلالها الأموال الأميرية التي تعهّد بها للجزّار، وبعدها عرّج على ساحل بيروت، ومنه الى دير القمر، وبدأ بتوطيد حكمه تدريجياً، معتمداً هذه المرّة على مبدأ السلطة المركزية، بعد أن صعب عليه ضبط شؤون رعيته. وكان الأمير يدير حكم البلاد بالصبر والحكمة حيناً،وبالبطش والقوة أحياناً، لترويض من يتربّص به شرّاً. زد على ذلك انه لم يكن في مأمن من غدر الجزّار، لأن هذا الطاغية متقلّب المزاج والرأي، ولا يتفاضل الأمراء عنده إلاّ بقدر ما يقدّمون اليه من مال. وكان إذا ولّى أميراً لا يأمن جانبه فيسترهن عنده ابنه او أخاه أو زوجته، فإذا عزله أعاد اليه الرهن ليسترهن أحد أنسباء الأمير الجديد.

## ب- عزل الأمير بشير للمرّة الثالثة:

لما تبيّن للجزّار أن الأمير بشير بدأ يوطّد الأمن والاستقرار في إمارته، و لم يعد له منافسون أقوياء يستغلّهم في زعزعة الإمارة وإبقائها في حالة توتّر واضطراب، كلّف عساكره إبلاغ الأمير بوجوب حضوره مع شقيقه حسن والشيخ بشير جنبلاط الى عكّا، موهماً إياهم أنه سيتداول معهم في أمور مهمّة. انطلت عليهم الحيلة، وما إن وصلوا الى عكّا حتى ألقى الجزّار القبض

عليهم وأودعهم السجن، وأرسل خلعة الإمارة الى ابناء الأمير يوسف.

**ج- الجزّار يعيد الأمير بشير الى الإمارة:**

في سنة ١٧٩٦، استصدرت الدولة العثمانية فرماناً يقضي بعزل الجزّار عن ولاية الشام وتعيين عبدالله باشا العضم زاده والياً عليها.

وكانت تربط بين هذا الوالي وأبناء الأمير يوسف علاقة متينة. فخشي الجزّار أن يقدم هؤلاء على التحالف مع الوالي الجديد، فيخرج جبل لبنان عن طاعته وارادته، وينتقل ولاؤه من سيّد عكّا إلى والي الشام، وينقطع عنه مورد، عرف - على الدوام - كيف يستغلّه. هذه الدوافع أسهمت الى حد بعيد في اخراج بشير من السجن، واعطائه الخلعة ، بعد أن اشترط عليه الجزّار ضرب أبناء الأمير يوسف وإبعادهم عن الإمارة.

سارع الأمير بشير الى الشوف ليتسلّم مهامه، وما إن وصل دير القمر حتى استقبله العديد من أعيان البلاد واتفقوا معه على تسوية الخلافات ونبذ الأحقاد، فعمّت الفرحة كلّ المناطق ابتهاجاً بقدوم أميرهم.

أما أبناء الأمير يوسف، فتوجّهوا الى بلاد جبيل مع مدبّرهم وأتباعهم، وأجروا اتصالات سريعة مع كلّ من والي الشام عبد الله باشا ووالي طرابلس خليل باشا اللذين أمدّاهما بالعساكر، كما أمدّ والي عكّا بدوره بشيراً بالجنود.

وكان من الطبيعي أن يتواجه الطرفان في معارك طاحنة، شملت مناطق متفرّقة من الجبل، انتهت بانتصار بشير ومن ورائه عساكر الجزّار الذين

لاحقوا عساكر والي دمشق وطردوهم من بلاد جبيل حتى البقاع.

أما أبناء الأمير يوسف ، ففرّوا الى الشام، وأخلدوا الى السكينة، ولكن الى حين. وعلى الأثر، راح الأمير بشير يبسط حكمه على جبل لبنان بعد أن فتح صفحة جديدة، فسوّى العديد من المشاكل والخلافات، وتقرّب من أهالي البلاد وكسب ولاءهم، واستطاع أن ينسيهم المشاكل الماضية.

وطّد الأمير الأمن، وأراح الناس من الظالمين واللصوص والمجرمين ، وكان شعاره: "لا جريمة تختفي ولا جرم يفلت". وكذلك منع الظالم والقوي من مضايقة الضعيف، كما أنشأ المؤسّسات والأجهزة الحكومية، وشجّع العمران، وجرّ المياه الى المناطق، وأولى الزراعة اهتماماً خاصاً. ومن ناحية أخرى، اهتمّ بالشأن الفكري والثقافي، وبالصحّة العامّة. وقد أدّى كل هذا الى تقريب الناس اليه، فأحبّه الكثيرون وأطاعوه.

## ١- نابوليون بونابارت في مصر:

رغم حبّه للعظمة، وجنونه وعصبيّته المخيفة أحياناً، والمضحكة أحياناً أخرى، أصبح الجزّار رجل دولة. ولكن رجل دولة على الطريقة الشرقية، إذ كانت لديه صفات خاصة تمنحه السلطة على الشعوب، فيتحكّم بها. فمنذ تولّيه الولاية، ومنحه لقب الباشوية، كان يسقط جميع مخطّطات أعدائه ببراعة فائقة، وكانت لديه رؤية ثاقبة بعيدة المدى، وكان وفيّاً للسلطان ويعمل بشتّى الطرق لإرضائه، ولكن ضمن إطار مصلحته الخاصة. الباب العالي كان يريده أن يدخل مصر ويقمع ثورة العبيد، إلاّ ان زعيم المماليك آنذاك مراد باشا كان يريده أن يعلن الثورة على السلطان، والجزّار بدهائه المعروف كان يشجّع الإثنين ويربح ثقتهما معاً. وكان يعمل على إثارة شغب متواصل في لبنان ليوهم المماليك بأن وضعه لا يسمح له بإعلان الثورة على السلطان، ويوهم السلطان بانه إذا جهّز حملة ضد المماليك فالدروز في جبل لبنان سيعلنون الثورة عليه، هكذا احتفظ بثقة الإثنين وحكم باطمئنان. أصبح همّ الجزّار الأكبر ان يخلق أعداء له ويزجّ نفسه في جميع الخلافات، لا سيّما منها خلافات الامراء الشهابيين في الإمارة اللبنانية، ومن ورائهم الأحزاب والأديان. فتارة يحمّس الموارنة على الدروز، وطوراً الدروز على الموارنة. فالحرب في الجبل مفتوحة على مصراعيها وأصبحت همّه الأكبر وشغله الشاغل، فكان بحاجة الى معارك وحروب داخلية، ليبني حكمه على انقاض

هذه الحروب والفتن المتواصلة، لا بل كان المسبّب لكلّ ما حصل في جبل لبنان من مآسٍ وفتن بين السنوات ١٧٧٥ و ١٨٠٤ (تاريخ وفاته).

وتنفيذاً لسياسته تلك، استدعى أبناء الأمير يوسف: حسين وسعد الدين وسليم الى مقرّه في عكّا مراراً ليولّيهم الامارة، كما في سنة ١٧٩٣ وسنة ١٧٩٤ وأخيراً في سنة ١٧٩٨ التي شهدت كذلك الحملة الفرنسية التي استولت على مصر بقيادة نابوليون بونابارت. هذا الاحتلال أراح الأمير بشير، ولكن الى حين.

## ٢- أسباب الحملة الفرنسية على مصر:

ثمّة عوامل وظروف عديدة دفعت بحكومة الثورة الفرنسية لإرسال نابوليون بونابارت على رأس حملة فرنسية الى مصر، أبرزها التنافس الشديد بين فرنسا وبريطانيا من اجل توسيع مناطق نفوذهما في بلدان الشرق. ففي سنة ١٧٩٣ أعلنت بريطانيا الحرب على حكومة الثورة في فرنسا، وراحت تؤلّب الدول الأوروبية الأخرى ضدّها، فانتقمت فرنسا منها بغزو مصر الواقعة في نقطة استراتيجية مهمّة على خطّ المواصلات الى المستعمرات البريطانية في جنوبي آسيا والمحيطين الهندي والهادئ.

هَدَفَ المشروع الفرنسي الى انشاء مستعمرة فرنسية في مصر، واستغلال كلّ امكانياتها الاقتصادية بوسائل العلم الحديثة، ووصل البحرين المتوسّط والأحمر بقناة تمرّ عبرها السفن الفرنسية تجنّباً لعناء الدوران حول رأس الرجاء الصالح، واتخاذ مصر كنقطة ارتكاز تقضي على نفوذ بريطانيا السياسي والتجاري في الشرق.

بالإضافة الى ما تقدّم، كـان المماليك، حكّـام مصـر، يعبثـون بمصالح التجّار الفرنسيين، فـرأت حكومـة الثـورة أنّ احتـلال مصـر يضـع حـدّاً لهـذا العبث، فضلاً عن فوزها بمكاسب سياسية واقتصادية، وبالسيطرة على البحر الأحمر لتقطع طريق الانكليز الى الهند والأوقيانوس الأعظم.

## ٣- سير الحملة :



نابوليون بونابارت

استـعدّ الاسـطول الفرنسـي الراسـي في مينـاء طولـون العسـكري للتوجّه الى مصـر ، ووقـف نـابوليون يخاطب رجال الاسطول قائلاً: "أيهـا الرفقاء، من دونكـم لا مجـد لفرنسـا، وبكم تنتشر عظمـة الوطـن في البـلاد النائية".

أبحـر الأسـطول وعلــى متنــه أربعة وثلاثون ألفاً مــن خـيرة الجيـش الفرنسي. وبوصوله الى مياه الاسكندرية، استعدّ المماليك للمواجهـة، وكـان بونابارت يريد استئصال حكمهـم لأنهـم حلفـاء الانكليـز ألـدّ اعـداء فرنسـا آنذاك. وكانت المقاومة في الإسكندرية ضارية، ومع ذلك تمكّن نابوليون مـن احتلالها، ثم تقدّم باتجاه القاهرة، وتمكّن من السيطرة عليها. وفي أثناء ذلـك، راح الجزّار يروّج بـأن الحملـة الفرنسـية هـي حملـة صليبيـة جديـدة ، وذلـك

بهدف إثارة حفيظة المسلمين كي يعلنوا الجهاد المقدّس، غير ان نابوليون راح يدحض هذه الدعاية بتوجيه مناشير الى السكّان والسلطان العثماني يوضح فيها بأن الحملة ليست ضدّ السلطان ولا ضدّ المسلمين، إنما هي لتأديب المماليك الذين أساؤوا الى الجاليات الفرنسية في مصر.

## ٤- حصار عكّا:

في سنة ١٧٩٩، وبعد استيلاء الفرنسيين على مصر وهروب واليها مراد بك، شعر الجزّار بأن عكّا لم تعد بمنأى عن الجيش الفرنسي ، فقام بتحصين المدينة، وأعدّ كل ما يلزم للحصار من جمع المؤن والذخائر، كما انه أعلن التعبئة العامّة في صفوف عساكره، ومنع ورود المراكب الى أساكله[١٨] ممّا أدّى الى انقطاع البضائع المصرية عن بلاد الشام، ثم أمر بمراقبة المسيحيين في المناطق التي كانت تحت سيطرته مخافة أن يتعاملوا مع الفرنسيين . وفي هذه الأثناء، كان الاسطول البريطاني يجول في البحر المتوسّط يراقب التطوّرات عن كثب.

وفي ٨ آذار من السنة عينها، تحرّك الجيش الفرنسي باتجاه مدينة يافا، وضرب حصاراً حولها دام ثلاثة أيام انتهى بسقوطها بعد قتال ضارٍ عنيف، وكان في داخلها حوالي اثني عشر ألف جندي لم يسلم منهم إلاّ القليل.

وما كاد بونابارت يصل الى مشارف عكّا، حتى وافاه العديد من مشايخ الشيعة وقدّموا له الولاء والطاعة وسلّموه بلاد بشارة. كما وصل

---

[١٨] أساكله= جمع إسكله وهو الميناء أو المرفأ.

صالح بن ضاهر العمر على رأس وفد من أتباعه وقابل نـابوليون وسلّمه بلاد صفد.

وفي ١٤ آذار، ضرب بونابارت حصاراً محكمـاً حـول عكّا، وشدّد الخناق عليها، لكن الجزّار راح يدافع عنها دفـاع المستميت. في أثنـاء ذلـك، وصلت الى سيّد عكّا مساندة من بلاد الشام، جاءته عـن طريـق جبـل لبنـان، ومن ثم اتجهت نحو صيدا، وقد زوّدها الأمير بشير الثاني بالذخائر والمؤن.

## ٥- الأمير بشير بين بونابارت والجزّار:

لما طال الحصار، اتجهت أنظار كل من نابوليون بونابارت وأحمد باشـا الجزّار ناحية الأمير بشير الثاني، إذ أمل كـل منهمـا بمسـاعدته لتغيير موازيـن القوى لصالحه.

كتب القائد الفرنسي الى الأمير مستنجداً، واعداً اياه بالاسـتقلال عـن العثمانيين وبالتخلّص من الجزّار نهائياً. وعربوناً عن صداقته، أهدى اليه سـيفاً ثميناً، لا يزال حتـى اليـوم في متحـف بيـت الديـن (القصـر الـذي بنـاه الأمـير بشير). ويذكر المستشرق الفرنسي لا مارتين في هذا الصدد، أن الأمـير بشـير أعرب لنابوليون عن استعداده للإجتماع به بعـد الإستيلاء علـى عكّـا. ومـن ناحيـة اخـرى ، دعـا الجـزّار الأمـير بشـير الى مؤازرتـه، مستعملاً معـه لغـتي الترهيب والترغيب. لكن أمير الجبل، لحسن درايته، فضّل التريث والبقاء علـى الحياد. فردّ على الجزّار معتذراً عن عدم تلبية رغباته بحجّة أن أوضاع الجبل لا تسمح له بذلك، وهذه اشارة واضحة الى استيائه من إبقاء الجزّار أولاد الأمير يوسف في ضيافتـه ليهـدّده بهـم أو ليسـلّمهم الإمـارة اللبنانيـة عندمـا تنجلي

المعركة. وهذا ما دفع الجزّار الى الشكّ بنوايا الأمير، وأضمر له الشرّ. وبالمقابل، اعتذر الأمير لنابوليون ايضاً عن مساعدته. غير أن هذا الموقف الحيادي، لم يجنّب الأمير الإحراج، ذلك ان اللبنانيين انقسموا فريقين: فالدروز اتخذوا موقف التحفّظ مع ميل ضمني الى الجزّار، وخاف العديد من عقّالهم وأعيانهم من استيلاء بونابارت على المنطقة بكاملها، وعزموا على الرحيل باتجاه حلب وحوران والجبال العالية. بينما انحاز المسيحيون بشكل علني الى الفرنسيين، فرحّبوا بقدومهم، آملين تحريرهم من الطاغية ومن الدولة العثمانية، وأبدوا استعدادهم لتقديم العون والمساعدة لهم، حتى ان البطريرك الماروني آنذاك (يوسف التيّان) أرسل وفداً الى بونابارت لينقل اليه ولاء المسيحيين الذين أرسلوا بعض المؤن من خمر وتين مجفّف وزبيب ودبس وبضائع أخرى وذخائر أحياناً كانت تُنقل على الدواب والبغال بشكل قوافل عبر البقاع.

هذا الموقف المسيحي أثار حفيظة الدروز، فما كان من مشايخ بيت عماد إلاّ أن قطعوا طريق البقاع لمنع الإمدادات عن الفرنسيين، كما انهم لجأوا الى مصادرة بعض القوافل المحمّلة بالمؤن والذخائر المتوجّهة الى الحملة الفرنسية. ولم يكتفِ هؤلاء بهذا القدر، بل راحوا يحرّرون للجزّار كتابات، متّهمين الأمير بشير بانه سمح بتسريب المساعدات للجيش الفرنسي، حتى يزيدوا من حقد الجزّار على الأمير، تمهيداً للانتقام منه. ولكن، لحسن حظ الأمير، كان بونابارت قد أرسل تحريرات لبشير الذي لم يردّ الجواب، فحرّر له ثانية يعاتبه على عدم الجواب.

وقعت هذه التحريرات في يد متسلّم مدينة صيدا، الذي أرسلها بدوره للجزّار، وعندما فضّ هذا الأخير الكتاب وقرأه، إنفرجت أساريره، لأن الأمير لم يقدّم أية مساعدة للفرنسيين. عند ذلك، أرسل تحريراً لبشير علامة على رضاه عن تصرّفه الحكيم، وهدأ روعه وتحسّن ظنّه به، ولكن الى حين. كما طلب منه ثانية إمداده بما يلزم من اسعافات ، غير أن الأمير بقي على الحياد، ينتظر مصير المعركة، وعندها يتّخذ الموقف المناسب. ومن جهته، ضيّق نابوليون الحصار على عكّا، وضربها بالمدفعية الثقيلة، وكاد يهدمها، ومن ثم حفر الخنادق حول المدينة، ونصب فيها المدافع، ودكّها مجدّداً، حتى قيل انه لم يبق فيها حجر على حجر.

وفي تلك الأثناء، كان قد وصل ما يقارب العشرين ألف جندي من بلاد الشام الى عكّا لنجدة سيّدها، فاعترضهم الفرنسيون بألف نفر منهم، وفتحوا عليهم النار بشتّى أنواع الاسلحة، فسقط عدد كبير من الضحايا، أما الناجون فتشتّتوا في كل اتجاه.

لما اشتدّت وطأة الحصار، ضاق الناس ذرعاً وعيل صبرهم، لأن مدافع بونابارت كانت قد هدمت المدينة، وكادت أن تسقطها ، والدليل على ذلك، ان الجزّار أمر أتباعه بتحضير أغراضه ومستنداته الخاصة والأموال الموجودة في الخزينة تمهيداً للفرار من عكّا. ولكن ، في اللحظة الأخيرة، جاءه كتاب من الأميرال سيدني سميث قائد الأسطول البحري الانكليزي المرابط في المياه الاقليمية للبحر المتوسّط، والذي كان يساند الجزّار بمدفعيته الثقيلة من البحر، يعلمه فيه أن الفرنسيين أصبحوا على وشك فكّ الحصار والتراجع

نتيجة عوامل متعدّدة سيُطلعه عليها في ما بعد، كما انه شدّ من عزيمته حتى يستمرّ في المقاومة والقتال، ولو لبضعة أيام أخرى، تكون كافية لإلحاق الهزيمة بالفرنسيين.

## ٦- نتائج حصار عكّا:

### أ- فشل بونابارت:

لم يدم حصار بونابارت لمدينة عكّا طويلاً ، فقد ارتدّ عنها خائباً مهيض الجناح، بعد أن فتك مرض الطاعون بجنوده، وقلّت المؤن لديه، بالاضافة الى ضربات الأسطول الانكليزي الذي ساند الجزّار، فضلاً عن الأوضاع الداخلية التي تردّت كثيراً في فرنسا بسبب ضعف حكومة الإدارة. هذه العوامل، اضطرّت نابوليون الى فكّ الطوق عن عكّا بعد حصار دام سبعين يوماً، ليسارع الى فرنسا على متن مركب صغير استطاع الافلات من مراقبة الاسطول البريطاني، وكان ذلك في خريف سنة ١٧٩٩، تاركاً وراءه الجنود الفرنسيين في مصر، مردّداً: "لولا هذا البشناقي الرقيق لغيّرت وجه العالم، أنا الذي قضيت على جيوش دول أوروبا الكبرى عجزت عن تخريب هذا العشّ الذي يُقال له عكّا".

### ب- انتقام الجزّار من الخصوم:

كان حظّ الأمير سيّئاً للغاية بسبب فشل الحملة الفرنسية في احتلال عكّا، وتحسّب لانتقام الجزّار لعدم مناصرته إياه إبّان الحصار. ويُروى انه رجلاً من جبل لبنان كان يزوّد الفرنسيين بالمؤن إبّان حصارهم مدينة عكّا،

انطلاقاً من شواطئ بيروت، قُبض عليه وتمّ ارسـاله الى الجـزّار. وخـلال نقله بحراً، شاهد سفينة انكليزية قادمة الى بيروت، فاستغاث بأعلى صوته، فسـمعه القبطان وأمر باطلاق سراحه ونقله الى مركبـه حيـث سأله الأمـيرال سيدني سميث عن امره، واستطراداً عن أحوال الأمير بشير، فأجـاب: "أنـا رجـل من لبنان، قُبض عليّ نتيجة ارسالي بعـض المؤن الى جنـود نـابوليون". وأمّـا عـن الامير فصرّح: "هو أبيّ النفس، معـروف بصدقـه وعدالتـه القاسية"، فقاطعه قائد الاسطول ليسأله عن علاقة بشير بالجزّار. فأجـاب: "إن هـذا الطاغيـة لا يريـد إلاّ الهـلاك للأمـير وللإمـارة معـاً". وأضـاف: "انـه خـلال المعـارك بـين بونابارت والجزّار، لم يتوانَ الأمير عن تزويد الحملة العثمانية القادمة من الشام لمساندة باشا عكّا بالمستلزمات الحربية والمواد التموينيـة، ومـع اطـلاع الجـزّار على كل ذلك يريد النيل منه والانتقام".

أرسل الأميرال البحري تحريراً الى الجزّار يدعوه الى تبديل نظرته ببشير، وأن تصفو نواياه تجاهه. أما الرجل الذي استجوبه الأميرال سميـث فقـد أطلق سراحه، وأرسله الى دير القمر مزوّداً إياه برسالة الى الأمير، يعـرب فيهـا عـن كامل احترامه، ويعرض عليه ما يطلبه من خدمات. فردّ الأمير برسالة شـكر وامتنان على ما خصّه به الأميرال من اهتمام ومودّة.

رحّب هذا الأخير بالجواب، وطلب من الرسول ان ينقل الى الأمير عن لسانه انه سيعمل جاهداً، وباخلاص، لاقامة صلـح بينـه وبـين الجـزّار، مثنيـاً على مواقـف الأمـير الجريئـة لاتخـاذه القـرارات الشـجاعة حتـى في أحلـك الظروف. كما أرسل مع الرسول الى دير القمر ابن اخته الذي كان مجروحـاً.

ولما وصلا، استقبل الأمير الضيف بحفاوة، وقدّم له الهدايا والسلاح والخيل الأصيل، كما خصّه بخدّام، واستدعى له أطبّاء لمراقبة صحته.

لم تمضِ أيام حتى رست سفينة بريطانية على سواحل بيروت،وعندما علم الأمير بالأمر، تمنّى على ابن اخت الأميرال ان يتوجّه الى بيروت ليقابل خاله، وينقل اليه رغبته في مقابلته، فكان له ما أراد.

تمّ الاتفاق على أن يكون اللقاء قريباً، وأرسل لهذه الغاية خيلاً مزيّنة الى بيروت كي ينتقل عليها الأميرال وصحبه.

في قرية عين عنوب الشوفية كان اللقاء بين الأمير بشير والأميرال سميث، وجرى حديث مسهب عن علاقته بالجزّار، وما يضمر هذا الأخير له وللإمارة من شرّ وبلاء، فوعده الأميرال خيراً لتسوية الأمور والخلافات. ولما انفضّ الإجتماع، ودّع الأمير ضيفه الذي قفل عائداً الى بيروت، ومنها الى عكّا للقاء سيّدها.

ساعات طويلة أمضاها الجزّار والأميرال يتباحثان في شأن الأمير، والجزّار لا يبدّل موقفه، فهو يريد الإقتصاص من بشير بسبب موقفه إبّان حصار عكّا. عاد القائد الانكليزي غاضباً، وأرسل كتاباً الى السلطان يشرح له فيه موقف الجزّار المعادي للأمير بشير، ويطلعه على انه إذا لم يبدّل الجزّار موقفه واستمرّ بعدائه المستحكم للإمير فهو سيعتبر العهود بينهما باطلة.

## ٥ التجاذب الأخير بين الجزّار وبشير

### ١- الصدر الأعظم في حلب:

ما إن غادر الأميرال الانكليزي سميث مدينة عكّا، حتى أرسل الجزّار عساكره الى صيدا برفقة أولاد الأمير يوسف الذين كان قد استبقاهم عنده على اثر احتلال نابوليون بونابارت لمصر، ثم قرّر ان يجعلهم حكّاماً على جبل لبنان اقتصاصاً من الأمير بشير الذي توانى عن نصرته خلال حصار عكّا. لما أُبلغ الى بشير وصول أبناء الأمير يوسف الى صيدا، دعا أهل الجبل والعائلات من كلّ الطوائف للتشاور معهم واتخاذ الموقف المناسب، باستثناء مشايخ بيت عماد ومناصريهم لأن هؤلاء أظهروا له الخيانة في عدّة مناسبات، فضلاً عن العلاقة المتينة التي كانت تربطهم بأولاد الأمير يوسف.

وفي الفترة عينها (سنة ١٨٠٠م.) تواردت الأخبار عن قدوم الصدر الأعظم الى حلب في طريقه الى مصر لاجلاء الفرنسيين عنها. فانشغل بال الجزّار وارتبك، وتوقّف موقّتاً عمّا كان عازماً عليه من تدابير سلبية بحقّ الأمير بشير، وأقلّها عزله عن الامارة.

أما أمير لبنان، فلما علم بقدوم الصدر الأعظم، وإكراماً لوفادته، ارسل له الهدايا وأنواعاً من الخيول الأصيلة مع رجل من الجبل يدعى حسن ورد. ولما التقاه في حلب وسلّمه هدايا أميره، عرض عليه ظلم الجزّار لأهل الجبل منذ تولّيه الباشوية. ولحسن حظّ الأمير، انه في الوقت الذي كان رسوله

حسن ورد يقابل الصدر الأعظم، تسلّم هذا الأخير كتاباً من الأميرال سميث يعرض له فيه ما دار بينه وبين الجزّار بشأن الأمير بشير، ويوضح له في الكتاب انه عاتب على الجزّار ، كما ذكّره بالدعم الذي قدّمه الأمير للحملة العثمانية القادمة من الشام الى عكّا خلال حصار الفرنسيّين للمدينة.

بعد أن اصبح على بيّنة من كلّ أعمال الجزّار، وعد الصدر الأعظم الأميرال سميث بالانتقام منه. ولّما وصل الى حماه، سارع الأمير بشير لتزويده بالذخائر، وبوصوله الى دمشق أرسل له المؤن، فما كان من الصدر الأعظم إلاّ ان أقرّه على حكم جبل لبنان، وعلى مناطق أخرى كوادي التيم وبعلبك والبقاع وبلاد جبيل، عرفاناً بالجميل. ولم يكتفِ بهذا القدر، إنما أمر الولاة بالكفّ عن تسلّطهم على الأمير، وبأن تُسلّم الأموال الأميرية من الجبل الى السلطان مباشرة، كما كانت تُرسل في عهود بني معن الذين كانوا امراء البلاد قبل الشهابيين.

غير ان الجزّار لم يكترث لقدوم الصدر الأعظم، ولم يقدّم له أيّة مساعدة، وهذا ما زاد من غضب هذا الأخير عليه، فأقرّ قبل مغادرته دمشق عبد الله باشا العضم والياً عليها، وأوصاه بمعاملة أمير لبنان بالحسنى، وأكمل طريقه الى مصر على رأس مئة ألف جندي.

ظنّ الأمير بشير، بعد كسبه لتأييد الأميرال الانكليزي وعطف الصدر الأعظم ، أنه أمن شرّ الجزّار الذي لم يعد له بالتالي أي تسلّط عليه. لهذا توجّه الى خصومه يضربهم الواحد تلو الآخر ليصفو له حكم البلاد. فذهب الى معاقل آل عماد لجمع الضريبة، وما كان من هؤلاء إلاّ أن هربوا خوفاً من

بطشه الى أطراف البقاع، وأقاموا حلفاً مع الأمير قاسم شهاب أمير وادي التيم، وأرسلوا الى الجزّار يطلبون المساعدة ليكونوا جميعاً عوناً لأبناء الأمير يوسف. لم يتأخّر الجزّار عن المؤآزرة ، فأرسل الجند الى حاصبيا حيث التقوا آل عماد. وبالمقابل، أرسل الأمير مقاتليه وعلى رأسهم الشيخ بشير جنبلاط، فتلاقى الفريقان في غربي البقاع، وكانت معركة شرسة استمرت حتى الغروب، دون أن تسفر عن آيّة نتيجة حاسمة.

## ٢- عبد الله باشا يؤآزر الأمير بشير ضد الجزّار:

تجاه هذا الواقع، طلب الأمير بشير المساعدة من والي الشام عبدالله باشا، الذي أرسل بدوره كتاباً الى والي حماه "منلا اسماعيل الدالي باشا" يوضح له الأوضاع السائدة في البقاع، وعلاقة أمير لبنان بالجزّار والدولة العثمانية ويضيف "انّ الأمير بشير هو حاكم على جبل لبنان، ويُعتبر من رجالات الدولة العثمانية الكبار، والآن يطلب المساعدة لمواجهة الطاغية أحمد باشا الجزّار، فيجب أن نقدّم له العون والمساعدة بأقصى سرعة. ومساعدته ستكون في صالح الدولة العلية، لأن الفاسقين والغارقين في الفساد ومن بينهم الجزّار يريدون تعطيل الأموال الأميرية في مثل هذه الأوقات، فليكن بعلمك يا منلا ان الخدمة التي ستقوم بها الى الأمير هي خدمة الدولة العليّة".

ما إن اطّلع المنلا على هذا الكتاب، حتى أعدّ قوّة عسكرية اتجه بها نحو البقاع ، ولما وصله وجّه كتاباً الى قائد المجموعة العسكرية التابعة للجزّار يطلب فيه أن يترك البقاع ويعود توّاً الى عكّا، فانصاع هذا لأوامر المنلا وعاد من حيث أتى . وحضر الشيخ بشير جنبلاط لملاقاة المنلا، وقدّم له الخيل

والذخائر، وتوجّها الى نواحي وادي التيم، فتراجع الأمير قاسم شهاب مع مناصريه آل عماد باتجاه مرجعيون، ومن ثم الى عكّا.

## ٣- ردّة فعل الجزّار على الأمير بشير:

لما وصل الأمير قاسم شهاب بصحبة آل عماد الى عكّا، استشاط الجزّار غضباً نتيجة انسحابهم من وادي التيم دون قتال الأمير بشير والمنلا. وكردّة فعل على ذلك، وللنيل من الأمير بشير، أعدّ حملة عسكرية قوامها عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبناء الأمير يوسف، بعد أن ألبسهم الخلعة لإدارة الحكم في جبل لبنان، واستبقى عنده شقيقهم الأصغر كرهينة. ومن الطبيعي أن تكون هذه القوة كافية لتحقيق النصر على الأمير بشير، الذي لم يتأخّر عن إرسال مقاتليه بأمرة ابن عمّه الأمير حيدر الى قرية غريفة لصدّ الزحف، وأرسل تحريراً للصدر الأعظم يعلمه بالمستجدّات، كما طلب من المنلا اسماعيل أن يعضده، غير أن هذا الأخير لم يستجب لطلبه وآثر العودة الى حماه.

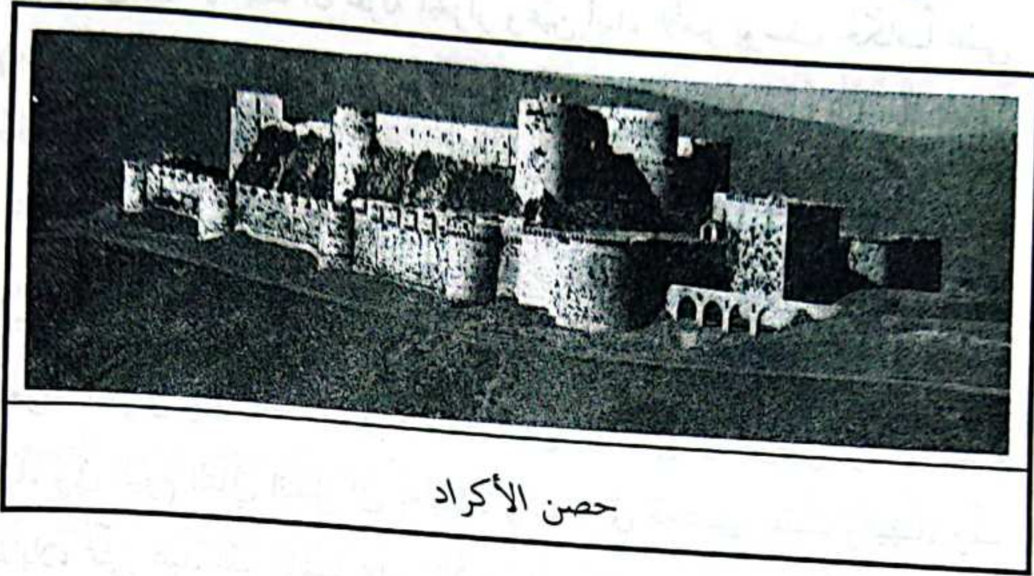
لما تبيّن للأمير بشير أن اكثرية الأهالي في الإمارة غير راغبة في مقاومة جند الجزّار الذي يبلغ الآلاف، وان الأغلبية راغبة في حكم أولاد الأمير يوسف، وإذ لم يجد قوى خارجية تسانده وتقف الى جانبه، وتجنّباً للمواجهة الخاسرة، ترك منطقة الشوف وتوجّه الى قبّ الياس في البقاع بصحبة الشيخ بشير جنبلاط وعدد من رجاله ومن أولاد عمّه. في أثناء ذلك، كان الأمير سعد الدين ابن الأمير يوسف قد دخل دير القمر، أما أخوه الأمير حسين فاتّجه نحو البقاع مع عساكر الجزّار مما اضطرَّ الأمير بشير الى ان يغادر المنطقة

ويتّجه نحو المتن قاصداً بلاد جبيل. وخلال وجوده هناك، استلم تحريراً من الأميرال سميث للاطمئنان عن أوضاعه، فردّ الأمير برسالة يشرح له فيها المأساة التي يعيشها بعد أن عزله الجزّار وعيّن أبناء الأمير يوسف حكّاماً على الإمارة. غير ان سميث ردّ له جواباً يُطيِّب فيه خاطره واعداً إيّاه باستعادة حكمه.

بعد أن طُرِد الأمير بشير من بلاد جبيل قصد بلاد الشام، فاجتاز الجبال العالية وكانت آنذاك مغطّاة بالثلوج، وعانى المشقّات ممّا لاقاه من صعوبة الطريق وبُعد المسافة والبرد القارس، فوصل الى الهرمل وبات ليلته فيها، وفي اليوم التالي انتقل الى بعلبك، ومنها الى دمشق للقاء واليها. ولمّا تقابلا، تمنّى عبد الله باشا على الأمير العودة الى جبيل بعد أن أرسل الى حكّام بلاد عكّار وصافيتا وغيرها يأمرهم جميعاً كي يكونوا عوناً للأمير لاسترداد حكمه.

اتّجه بشير الى عكّار، فاستقبله أحد كبار وجهائها علي بك الاسعد. وفي أثناء ذلك، كان قد وصل اليه كتاب من الأميرال سميث يتمنّى عليه حضوره الى عريش مصر لمقابلة الصدر الأعظم، فلبّى الأمير طلبه وأقلّته سفينة انكليزية من مرفأ طرابلس في الثالث والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٠١، ووصل الى مصر، وانتقل الى العريش، وقابل القائد الإنكليزي الذي سُرَّ لقدومه، ومن ثمّ انتقلا معاً لمقابلة الصدر الأعظم الذي استقبلهما بحفاوة، وتحادثا بشتّى الأمور، وأبرزها علاقة الأمير بالجزّار وأوضاع الإمارة اللبنانية وما آلت اليه من حروب وصراعات دامية كان يؤجّجها الجزّار، وأكّد الأمير

ان الجبـل لا يمكـن أن يهـدأ إلاّ اذا كـفّ الطاغيـة شرّه عنـه، فوُعِـد خـلال الاجتماع بالعودة الى الحكم.



حصن الأكراد

في ايار ١٨٠١ عـاد الأمـير بشـير بحـراً مـن مصـر الى طرابلـس، فـإلى حصن الأكراد عند علي بك الأسعد في وادي راويد. وفي تلك الأثنـاء، كـان قد وصل ألف خيّال من جنود الجـزّار الى منطقـة البقـاع يطلبـون مـن الأمـير حسين الضريبة التي تعهّد بها، فقدّم لهم المبلغ المطلـوب وأرسـلوه الى سيّدهم الذي عاد وطلب من خيّالته المزيد: ألف رأس غنم، ثلاثمّاية رأس بقر، ثلاثمّايـة قنطار بارود، وثلاثمّاية كيس قمح. وكان القصد من هـذه المتطلّبـات خـراب لبنان. غير أن اولاد الأمير يوسف اعتذروا عن تلبية المطالب تلـك لأنّهـا غـير متوفّرة، فأجابهم الجزّار وإن تعذّر ذلك فما عليكم إلاّ أن تدفعوا مـا يوازيهـا مالاً.

لما رأى أبناء الأمير يوسف ان عليهم دفـع الضريبـة لا محالـة، اضطُرّوا الى فرضها بشكل عشـوائي، وكـانت باهظـة لم يتحمّلهـا النـاس. أضـف الى

ذلك القحط واليباس الذي حصل تلك السنة وأدّى الى ارتفاع الاسعار واستشراء الغلاء حتى بلغ سعر مِدّ[١٩] القمح ثلاثة قروش فازداد الناس بؤساً وشقاءً، ولم يعد لهم طاقة على الدفع، وفضّلوا المواجهة مهما غلت التضحيات ، وراحوا يترقّبون عودة الأمير بشير بفارغ الصبر علّه بعودته يكون خشبة خلاصهم، لأن حياتهم بهذا الشكل لم تعد تطاق.

في هذه الأثناء كان الامير بشير، بعد عودته من مصر، قد حرّر كتابات سرّية الى بعض المتنفّذين لدى الجزّار يطلب فيها أن يستصدروا له العفو من سيّدهم إذا أمكن. فكان الردّ بالايجاب، شرط أن يزيد المال عمّا تعهّد به أولاد الأمير يوسف. رفض الأمير العرض لأنه مستحيل، ولأن الأهالي لم يعد لديهم شيء يدفعونه، لهذا فضّل أن يبقى في الغربة على أن يعرّض الناس للأذى والظلم.

## ٤- مطالبة أهالي الجبل بعودة الأمير بشير الى الحكم:

بعد تنامي الأزمة الاقتصادية، سارع أعيان الجبل فعقدوا اجتماعاً سرّياً، اتفقوا فيه في ما بينهم، ودون علم الأمير بشير، على أن يتوجّهوا الى مقر اقامته الموقّتة في ميناء الحصن، ويأتوا به ليطردوا أولاد الأمير يوسف مع جند الجزّار. ووضعوا ميثاق شرف في ما بينهم ينصّ على رفض أيّ أمير غير بشير، وانهم سيقفون الى جانبه يقاتلون الجزّار من غير تردّد للتخلّص من هذه البلية التي حلت بلبنان.

---

[١٩] مِدّ القمح يساوي ثلاثة عشر كيلوغراماً.

توجّه كبار القوم الى الأمير وأعلموه بما اتفقوا عليه، وطلبوا منه أن يتوجّه معهم الى الجبل. فلما تحقّق للأمير أن أهالي لبنان عاهدوه على السرّاء والضرّاء، وأدرك انهم جدّيون بما أقدموا عليه، صمّم على العودة ليقاتل الجزّار مجاهرة مهما تكن النتائج، وهو مدرك تماماً انه لا يمكن لأيّ انسان، مهما علا شأنه ومقامه وبلغت قوّته، أن يتسلّط على الإمارة أو يستبيحها إذا كان أهاليها متّحدين متماسكين، **لأن الاستيلاء على لبنان لا يؤخذ إلاّ ببنيه.**

في السادس من تشرين الأوّل سنة ١٨٠١ عاد الأمير بشير الى الجبل، فوصل أوّلاً الى كسروان، ومن هناك أعلن لأهالي البلاد عن قدومه، وهم كانوا بانتظاره على أحرّ من جمر، ومن ثم انتقل الى المتن فأمّته جموع غفيرة معلنة تأييدها له. ولما ادرك أولاد الأمير يوسف والمدبّران جرجس وعبد الأحد باز ان البلاد خرجت عن طاعتهم، توجّه جرجس باز الى صيدا وطلب من سيّد عكّا مؤآزرته، فأرسل اليه ألفي رجل من الأرناؤوط رابطوا في دير القمر.

من المتن انتقل الأمير الى الشوف، وكان ذلك في الخامس من تشرين الثاني سنة ١٨٠١. وعند وصوله الى معاقل بيت عماد، استقبلوه على الرحب والسعة، وقدّموا ولاءهم له واتّحدوا معه، وجرى عتاب لغسل القلوب. ومن المعروف أن آل عماد كانوا حلفاء ابناء الأمير يوسف، إلاّ ان هؤلاء لم يحسنوا معاملتهم، فأرهقوهم بالضرائب، واصطدموا بهم كما اصطدموا بغيرهم من العائلات اللبنانية الأخرى التي ناصبتهم العداء لعدم تمكّنهم من حسن تسيير شؤون الحكم، فعمّت الفوضى واستشرى الغلاء،

ونقمت الناس على حكمهم. لهذا كله كان الإجماع حول بشير، والتأييد الكلّي له للتخلّص من أبناء الأمير يوسف.

مكث الأمير بشير في مناطق الشوف الأعلى فترة كي يُعدَّ نفسه لدخول مقرّ الإمارة ، وكان كبار الأعيان والعامة قد تجمهروا حوله. وفي اثناء ذلك، أُبلغ اليه ان الأمير حسين ومدبّره جرجس باز قد تحصّنا في دير القمر مع عسكر الأرناؤوط، وأدرك الأمير انه لا يمكن دخول دير القمر إلاّ بمعركة سيذهب ضحيّتها عدد كبير من الأهالي والمقاتلين، لأجل ذلك غيّر اتجاهه وعرّج الى بعقلين الواقعة قبالة الدير تجنّباً للمواجهة وهدر الدماء. وما كاد يصل الى بعقلين، حتى وجّه مشايخ بيت عماد انذاراً الى جرجس باز بوجوب مغادرته مقرّ الامارة مع العسكر، لأن اتفاقاً وصلحاً سيتمّان بين الأمير بشير وأبناء الأمير يوسف بحيث سيكون الأوّل حاكماً على جبل لبنان، وأولاد الأمير يوسف حكّاماً على بلاد جبيل.

رحل الأمير حسين مع اتباعه وعسكره من دير القمر قاصداً الطريق الساحلي، موهماً أتباعه بأنه يريد مقابلة عسكر الجزّار في صيدا للاتفاق معهم، لأن عسكر الأرناؤوط غير كافٍ لمواجهة الأمير بشير الذي أصبح الجبل رهن اشارته، وهو في الحقيقة كان يخشى ان يُطبق الأهالي على الجند فيما لو بقوا في دير القمر فيهلك الجميع. ومن ثم أرسل الى الجزّار يعلمه بالمستجدّات وطلب منه مدّ يد العون والمساعدة. ولما علم الطاغية بوصول الأمير بشير الى دير القمر انفجر غيظاً، وأمر جنوده بموافاة الأمير حسين والمدبّر جرجس باز.

وكان اتفاق سرّي قد جرى بين مشايخ آل عماد وجرجس باز على أن يترك الأرناؤوط عند وصوله الى ساحل بيروت ويعرّج على الشويفات ليلتقي الأمير بشير ويتّحدا ضدّ الجزّار. وتنفيذاً لهذا الاتّفاق، اتجه الأمير نحو الشويفات لموافاة الأمير حسين ومدبّره جرجس باز، غير انهما لم يظهرا، فعرف أن جرجس خان عهده، وانه لا بدّ من المواجهة. وفي اليوم التالي، التقى الطرفان، وكانت المبارزة، بحيث انهال أبناء الجبل بكل عزيمة وإيمان على جند الجزّار وألحقوا بهم أفدح الخسائر وانتصروا من أجل قضية آمنوا بها ونذروا أنفسهم لها، وهي استقلال الجبل اللبناني ونشر الحرّية بين ربوعه وضرب كل من يتربّص شرّاً بالإمارة.

## ٥- التسوية بين الأمير بشير وأبناء الأمير يوسف:

لما ادرك جرجس باز ان جميع الفئات اللبنانية وحّدت قواها وراء الأمير بشير، أرسل اليه سرّاً يطلب تنفيذ الاتّفاق الذي وعد به سابقاً، مقدّماً اعتذاره، ويضيف انه إذا حصل على الأمان والاطمئنان بصدق، ولم يحصل له أي ضرر أو أذى يترك عسكر الجزّار ويحضر من أجل المصالحة. فردّ الأمير بشير بكلّ صدق وإخلاص، متعهّداً له بما تمنّاه. ولما ثبت للمدبّر باز ان النوايا طيّبة، وان الأمير فعلاً يريد للإمارة الخلاص وإنهاء المآسي والحروب، اجتمع بقادة عساكر الجزّار موهماً إيّاهم بقوله: "ان أهالي جبل لبنان أرسلوا يدعونه بقولهم: إذا حصلوا على الطمأنينة الكاملة قبضوا على الأمير بشير وسلّموه لنا". وهكذا انطلت خدعة باز على عسكر الأرناؤوط. وعلى الفور نفّذ الأمير حسين ومن كان بصحبتهم رغبة بشير ودخلوا الشويفات، وهناك

صادفوا الأمير حسن شقيق حسين وبعض أعيان البلاد، وهؤلاء جميعهم التقوا الامير بشيراً وتمّت التسوية السلمية كما اتفق عليها بمباركة أبناء الأمير يوسف، وكانت الفرحة كبيرة بحيث عمّت الجميع.

لكن الأمير بشيراً بقي يشكّك في نوايا جرجس باز، لهذا طلب من البطريرك يوسف التيّان أن يكرّس هذه الاتفاقية شخصياً بحفلة قسم يمين تكون في كنيسة دير القمر، ليصبح جرجس باز مقيّداً ببنودها. وبالفعل، وبحضور البطريرك، أقسم جرجس يميناً على مذبح كنيسة سيّدة التلّة في دير القمر يتعهّد بموجبه صراحة بألاّ يقوم بأيّ عمل عدائي ضدّ الأمير بشير. وبالمقابل طلب جرجس باز من الأمير أن يؤدّي قسماً مماثلاً، وبارك البطريرك التيّان هذين القسمين. كان لهذه الاتفاقية أثر إيجابي على جبل لبنان، بحيث أعادت اليه الهدوء والسكينة، ولو الى حين، وخفّفت من حدة التوتّر، أقلّه بين زعماء العائلة الشهابية الواحدة، كونها قضت بأن يتولّى الأمير بشير حكم المقاطعات الأصلية في الشوف وكسروان، ويتولّى أولاد الأمير يوسف حكم بلاد جبيل وشمال لبنان، على أن يكون جرجس باز وشقيقه عبد الأحد مدبّرين عندهم. وهكذا زالت الأحقاد من القلوب والنفوس وفُتحت صفحة جديدة علّها تكون خيراً على اللبنانيين.

ما إن علم الجزّار بهذه الاتفاقية حتى فقد صوابه، إذ اعتبرها هزيمة نكراء لمشاريعه أمام هذا الإجماع الوطني، واعتبر ان تطبيقها يعني زوال نفوذه كلّياً عن الإمارة .

## ٦- الجزّار يعود الى اثارة القلاقل في الجبل:

منذ سنة ١٨٠٢، وبنتيجة الاتفاق السالف الذكر، لم يعد للجزّار تلك السطوة على الامارة اللبنانية، فراح يخطّط للايقاع بين اللبنانيين.

كان لمشايخ بيت عماد وجيه يدعى الشيخ جهجاه، وقد قُتل في موقعة عاريّا عندما قاتل الى جانب الأمير بشير ضدّ أبناء الأمير يوسف. ومنذ تلك الحادثة تغيّرت نيّاتهم ونفرت قلوبهم، فأعادوا حساباتهم ، وكأنّهم ندموا على مؤآزرة الأمير بشير، لا لشيء الاّ لأنّهم يكنّون الكره للجنبلاطيين حلفائه. لهذا اتفقوا مع أحد امراء بيت شهاب المدعو عبّاس، وكان شاباً في مقتبل العمر، ووعدوه بمساندته ليتسلّم السلطة، كي يصبحوا في طليعة المتنفّذين ، ويقهروا أعداءهم الجنبلاطيين. وعلى هذا الأساس، اتجه كبار وجهاء بيت عماد الى عكّا، وقابلوا الجزّار طالبين منه المساعدة لايصال عبّاس شهاب الى الحكم، وهو لم يكن ينتظر أكثر من مثل هذا الطلب ليستعيد هيمنته على الإمارة اللبنانية، ففرح بذلك فرحاً عظيماً و"لبّس عبّاس خلوع الإلتزام على حكم البلاد "، وزوّده بالجند لقرع باب الإمارة والولوج اليها من الباب الواسع.

في اليوم العاشر من آب سنة ١٨٠٢، دخل عبّاس دير القمر على رأس قوّة عسكرية كبيرة، فتجنّب الأمير بشير القتال وانسحب الى جبيل، إلا ان الجزّار أمر عبّاس بملاحقته وطرده من هناك، فتوجّه بشير الى المتن حيث التفّت حوله قوى كبيرة قرّرت المواجهة. ولمّا علم عبّاس بهذا القرار، عاد الى دير القمر، لكن الأهالي منعوه من الدخول، فانسحب الى البقاع وبصحبته

بيت عماد. أمّا العساكر الذين أرسلهم عبّاس الى جبيل، فقد غـادروا المنطقة تحت ضغط الأهالي، وتوجّهوا نحو طرابلـس، فعكّـار، ومـن هنـاك الى حمص فبعلبك والتقوا بالأمير عبّاس.

في التاسع من ايلول مـن السنة عينهـا، التقى الفريقـان، الأمير بشير وقوّاته من جهة، وعبّاس وعسـاكر الجـزّار مـن جهـة ثانيـة، في مكـان يُدعى "خان مراد" الواقـع بـين الجبـل ووادي البقـاع، حيث دارت رحى الحرب، وكُتبت الغلبة للأمير بشير وأنصاره، بعد أن شتّت التحالف المعادي الذي فرّ أفراده هاربين. عند ذلك، طلب عبّاس من الجزّار مدّه بمزيد من العسـاكر، الاّ ان هذا الأخير، من خلال خبرته الطويلة، كان يعلم انـه لا يمكـن أخـذ جبل لبنان دون رضا أهله، فأمر عساكره بالعودة الى عكّا. واضطر عبّـاس للتوجّه الى حاصبيا، ومن ثمّ الى عكّا.

وهكذا أمسك الأمير بشير بزمام الإمارة، ورجع مع جرجـس بـاز الى دير القمر.

## ٧- الجزّار والفرمان السلطاني:

في هذه الأثناء، انشغل الجزّار بمحـاصرة يافـا، وانصرف عـن كـلّ مـا عداه، فكفّ شرّه عن لبنان. وعندما شدّد قبضته على المدينة، أرسلت الدولـة العثمانية تطلب منه رفع الحصار، إلاّ أنه أبى واستمرّ في عناده، فما كـان مـن السلطان إلاّ أن أصدر فرماناً يعلن فيه: "إن الجـزّار أضحى مغضوب الدولة لأنه عصى أوامرها، وقد حلّ قتاله وجاز، وإن شـاء الله قريبـاً بسيف اللـه الجبّار ترتاح منه سائر الأقطار، فمن الآن فصاعداً، إذا خـاطبكم لا تجـاوبوه،

وإذا أمركم لا تطيعوه، بل إذا كان له مراكب اضبطوها، ومهما وجدتم له من أرزاق كلية أم جزئية فاضبطوها وقيّدوها بدفاتر وأرسلوها الينا، وكلّ من يخالف أوامرنا فلا بدّ من عقابه هو وأولاده، وشرحنا ذلك لنصحكم ومرحمة لكم... والحذر ثم الحذر من المخالفة والعناد، والسلام ...".

وقد صدر هذا الفرمان سنة ١٨٠٣، ونُشر في أرجاء البلاد، ودخلت الفرحة قلوب الناس لأن الجزّار أصبح مطلوباً من الدولة العليّة. ومع كلّ ذلك، لم يأبه الطاغية لهذا الفرمان، واستمرّ في عناده حتى أسقط يافا وضمّها اليه. غير أنه لشدّة دهائه واحتياله، وهو العارف بما يرضي السلطات العليا، سارع وقدّم لها الهدايا والنفائس الثمينة والأموال، مع اعتذاره على ما بدر منه طالباً الصفح، وهكذا نال رضى السلطان الذي عاد عن قراره الشهير، وكأنّ شيئاً لم يكن.

وبعد الانتهاء من عملية يافا، تفرّغ الجزّار من جديد لإمارة لبنان بهدف استعادة المبادرة فيه والتسلّط عليه مجدّداً، وذلك من خلال الأمير عبّاس الذي أصحبه بعدد وفير من عساكره ليتوجّه بهم الى الإمارة لضرب الأمير بشير وطرده. ودعم هذا الموقف مشايخ اليزبكيين حلفاء آل عماد أعداء بشير.

وفي إحدى ليالي نيسان من سنة ١٨٠٤، وأخبار جيش الجزّار الزاحف تنتشر بسرعة في الجبل، والجميع يتبادلون الأحاديث عن المصير، والأمير بشير في تفكير مستمرّ يحلّل الأمور، وهو في حيرة، ما العمل؟ وما هي الاجراءات التي سيقدم عليها؟ أيترك الحكم في الليل ، ويتّجه نحو طرابلس،

فيسأل مصطفى بربر آغا أن يهرّبه الى مصر؟ أم يلجأ الى الشام ويكون في حمى واليها ابراهيم باشا؟ أم يتّجه الى عكّا مستسلماً للقدر والجزّار؟ أم يبقى حيث هو في عرينه منتظراً قدوم جنود الطاغية ليقاتلهم ويحاربهم حتى الرمق الأخير؟

دارت في رأسه كلّ هذه الخيارات، فلم يقف إلاّ عند الأخير منها، لأن شهامته وكرامته وعزّته تأبى الاستسلام.

وبعد أن اتّخذ قراره ، صاح بأعلى صوته، فساد الصمت بين الناس والتفتوا نحوه مستفسرين، وإذا بعينيه تلمعان بنور العزم "سأبقى هنا الى آخر لحظة، فمن يبقى معي؟". صاح الجميع بأعلى صوتهم: "كلّنا فداك". في تلك اللحظة، قُرع باب المجلس، ودخل منه أحد جواسيس الأمير في عكّا المدعوّ عسّاف وصرخ:" البشارة لك يا صاحب السعادة، فطس الجزّار". لم يُخفِ الأمير غبطته للخبر، ثم خرج مع ندمائه الى الخارج وتنفّس الصعداء، وكأنّ حملاً ثقيلاً قد سقط عن ظهره. وتحوّل الصمت المخيّم على ذاك المجتمع الى فرح عمّ الجميع. وراح عسّاف بعد استراحة قليلة يروي تفاصيل موت الجزّار.

## ٨- نهاية الجزّار:

في مطلع سنة ١٨٠٤، بدأ الجزّار بالإحتضار والتلاشي، فقد انتابه العجز وأصبح خائر القوى، وتراكمت عليه الأمراض والأعراض، وعجز الأطبّاء عن شفائه، ولم يعد بإمكانه إدارة شؤون ولايته. ومنذ ذلك التاريخ، بدأ الناس يرتاحون تدريجيّاً من جوره واستبداده، حتى ارتاحوا منه نهائياً ليلة

الثلاثاء الواقع فيه السابع عشر من نيسان سنة ١٨٠٤، حيث توفّاه الله، ودفن في جامع فخم في مدينة عكّا، كان قد بُني في ايامه وهو مازال قائماً حتى اليوم. بلغ هذا النبأ السلطات العثمانية وكلّ البلاد، فسرى فرح عظيم غمر الجميع، وعاد الهاربون، وخرج المسجونون، وظهر المتخفّون، ولم يبقَ شاعر إلاّ وفرح بموته ونظم القصائد الشامتة:

وهذه بعض الأبيات التي تشير الى ظلمه وغدره وقساوته.

وافى السرور وصحّ ترجيح الأمل بهلاك غاشم لا يعادله مَثَلْ
عين المظالم والمآثم والرّدى شرُّ العوالم أن تفكر أو عمل
جزّار لكن للفضايل جازرٌ مهدي ولكن بالرذايل قد حَفَلْ
وبموته زال العنا يا حبّذا هذا المنا غاب التعدّي والوجل.

# الخاتمة

انها لسخرية القدر أن تشهد البلاد حاكماً كأحمد باشا الجزّار، استبدّ بالناس كما شاء، وظلمهم بتغريم حكّامهم ضرائب فوق العادة، أضعافاً مضاعفة متمتّعاً بقهرهم وإذلالهم.

من المفارقات الغريبة، ان مملوكاً عُرض في سوق النخاسة، وارتقى في غفلة من الزمن الى أسنى المناصب العثمانية، فاستمرّ أبداً لصّاً وطاغوتاً وماكراً، تلاعب بالأمراء اللبنانيين الذين جعلوا الحروب والفتن الداخلية دَيْدَنهم غير آبهين بمآسي مواطنيهم وآلامهم وبؤسهم، فأذلّوا من وُلدوا أُباةً، مَنْ لم يخضعوا يوماً لحكم الأجانب إلاّ قسراً وآنياً.

ومنذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، لم يعرف الجبل اللبناني الاستقرار، وزاد في الأوضاع سوءاً وتعقيداً مرحلة حكم الجزّار الطاغي وما تلاها من أزمات شكّلت مفاصل في الحركة التاريخية اللبنانية. وما زلنا ندفع من دمائنا وكرامتنا وحرّيتنا واستقلالنا ثمناً باهظاً لأخطاء الماضي ولّما نتّعظ بعد، فمتى يبزغ فجر الاستقلال الحقيقي في لبنان؟

# المصادر والمراجع


١-الأمير حيدر احمد الشهابي، كتاب "**الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان**"، القسم الأوّل، طبعة الدكتور أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٩٣.

٢-الامير حيدر أحمد شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزّار**، مكتبة انطوان، ١٩٥٥

٣-طنوس الشدياق، "**اخبار الأعيان في جبل لبنان**"، دار الجيل، بيروت،١٩٩٣.

٤-طارق ضومط، **الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير**، سلسلة "أولادنا والتاريخ"، مكتبة حبيب، ١٩٩٣.

٥-عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون**، الطبعة الاولى، دمشق، ١٩٧٤.

٦-قسطنطين زريق، **تاريخ الشيخ ظاهر العمر**، الزبداني، ١٩٢٨.

٧-مخائيل مشاقة، **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**، نشر ملحم عبده واندراوس شخاشيري، القاهرة، ١٩٠٨.

٨-مكّي شبيكه، **تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر**، دار الثقافة - بيروت، ١٩٨٠.

٩-محمد جابر آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨١.

١٠-هنري غيز، **لبنان منذ قرن ونصف قرن**، ترجمة مارون عبود، دار المكشوف، ١٩٥٤.

11-Edouard Lackroy, **Ahmed le Boucher**, La Syrie et L'Egypte au XVIII siècle, 1888.